

وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ



مقاصد سورة النحل

دراسة تحليلية في السياق والترابط الموضوعي

أ. مصطفى محسن حسان

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، الذي أنزل القرآن الكريم هدايةً للناس، ونورًا للقلوب، وشفاءً لما في الصدور، وجعل آياته محكمة البناء، متآلفة المعاني، مترابطة المقاصد، تشهد آياته على تكامل خطابه، وتكشف موضوعاته عن وحدة رسالته، والصلاة والسلام على نبينا محمد ﷺ، الذي بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى أثره إلى يوم الدين.

فإن القرآن الكريم كتاب هداية وإصلاح، أنزله الله تعالى ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويرشدهم إلى الحق في الاعتقاد والعبادة والسلوك، ويقيم حياتهم على أساس العبودية لله تعالى والاستجابة لمنهجه. ولا يقتصر إعجازه على نظمه البديع، وبيانه المعجز، وما اشتمل عليه من أخبار وأحكام، بل يتجلى كذلك في إحكام بنائه، وائتلاف موضوعاته، وترابط آياته ومقاطععه، وانتظام معانيه في سياق هادف تتكامل أجزاؤه في تحقيق الغايات التي نزل من أجلها.

ومن هنا كانت العناية بالدراسة الموضوعية للسور القرآنية من المسالك المهمة في الكشف عن هدايات القرآن الكريم، وفهم طبيعة بنائه الداخلي، واستجلاء العلاقات التي تصل بين قضايا العقيدة والتشريعة والأخلاقية والتربوية. فالنظر في السورة بوصفها وحدة موضوعية متكاملة يعين على تجاوز الاختصار على تفسير الآيات متفرقة، إلى إدراك الصلات التي تجمع بينها، والوظائف التي تؤديها مقاطعها، والمقصد الذي تنتظم في إطاره موضوعاتها المتعددة.

وتأتي سورة النحل في مقدمة السور التي تتجلى فيها ثراء الموضوعات وتنوع مسالك الاستدلال، مع إحكام الصلات بين قضايا العقيدة ومشاهد الكون والحياة، وما يسوقه القرآن الكريم من دلائل النعم وآيات القدرة، وما يقرره من حقائق الوحي والنبوة والبعث والجزاء، وما يوجه إليه من أصول الأخلاق والتشريع وآداب السلوك. وقد اشتملت السورة على عرض واسع للنعم الإلهية الظاهرة والباطنة، وربطت هذه النعم بوجوب إفراد الله تعالى بالعبادة، وشكره على آلائه، والانقياد لأمره، كما واجهت مظاهر الشرك والجحود، وأقامت الحجج على صدق الوحي والرسالة، وقررت مسؤولية الإنسان عن موقفه من الحق وما يترتب على ذلك من الجزاء.

ولا تبدو هذه الموضوعات، عند التأمل في سياق السورة، قضايا منفصلة يجمعها مجرد التجاور، بل تبرز بينها علاقات دلالية واستدلالية تستدعي الدراسة والتحليل؛ إذ تتساند الأدلة الكونية والنعم الإلهية في تقرير التوحيد، وتتكامل القضايا العقدية مع التوجيهات الأخلاقية والتشريعية في بناء الإنسان المؤمن، وتتضافر مقاطع السورة في توجيه الخطاب القرآني إلى غايات مترابطة. ومن ثم فإن الكشف عن هذا البناء لا يتحقق بمجرد إحصاء الموضوعات الواردة في السورة، وإنما يحتاج إلى تحليل سياقاتها، ودراسة الروابط بينها، والنظر في موقع كل موضوع من المسار العام للسورة.

وانطلاقاً من هذه الأهمية، جاء هذا الكتاب بعنوان: مقاصد سورة النحل دراسة تحليلية في ضوء السياق والترابط الموضوعي؛ سعياً إلى دراسة السورة دراسة موضوعية تحليلية، تستكشف ملامح بنائها الداخلي، وتبين أوجه الترابط بين مقاطعها، وتستخلص مقاصدها المحتملة، ثم تستخلص هذه المقاصد وتوازن بينها وصولاً إلى ترجيح الصيغة الأقدر على استيعاب موضوعات السورة وتفسير انتظامها في سياق واحد.

وقد اتخذت الدراسة من تفسير الشهيد سيد قطب، ولا سيما ما تضمنه من عناية بالوحدة الموضوعية للسورة، واستجلاء للظلال الدلالية والتربوية للآيات، مصدرًا رئيسًا للإفادة والتحليل، مع الرجوع إلى مصادر التفسير الأخرى؛ للاستفادة من جهود المفسرين في بيان المعاني، وتحرير الدلالات، وتوجيه العلاقات بين الآيات والمقاطع، ومقارنة الأقوال والترجيح بينها وفق ما يقتضيه السياق القرآني. ولم يكن المقصود الاختصار على عرض أقوال المفسرين، وإنما توظيفها في بناء قراءة موضوعية متكاملة لسورة النحل، تقوم على استقراء نصوصها، وتحليل سياقاتها، واستخلاص الفرضيات المقترحة بشأن مقصدها الجامع.

والحمد لله رب العالمين.

تمهيد أصولي

فقه المقاصد

مفهوم فقه المقاصد الشرعية

يقصد بفقه المقاصد الشرعية فهم الغايات والأهداف والجِكم التي أراد الشرع تحقيقها من وراء الأحكام، وعدم الاكتفاء بظاهر النصوص فقط، بل النظر أيضًا إلى مقاصدها ونتائجها. ويمكن التعرف على هذه المقاصد من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية والاستقراء والتأمل في الأحكام الشرعية.

أولاً: أهداف ومقاصد الشريعة الإسلامية

تتمثل أهم أهداف الشريعة الإسلامية فيما يأتي:

١. تحقيق العبودية لله تعالى: وهي الغاية الأساسية التي تشمل حياة الإنسان في الدنيا والآخرة.
٢. تحقيق مصالح العباد: فالشريعة تهدف إلى تحقيق الخير للإنسان في معاشه ومعاده، وتربط بين أعمال الدنيا والجزاء في الآخرة.
٣. جلب المصالح ودرء المفساد: أي تحقيق المنافع والخيرات، ومنع الأضرار والمفاسد التي تصيب الفرد والمجتمع والإنسانية جمعاء.
٤. تحقيق التعارف والتعاون بين الناس: فاختلاف الشعوب والقبائل غايته التعارف والتعاون، وليس التنازع والإضرار بالآخرين.

ثانيًا: أدلة المقاصد من القرآن والسنة

- في الزكاة: قال تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: 39]: فالغاية ليست مجرد إخراج المال، بل ابتغاء رضا الله تعالى.
- في الصيام: قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 183]، فالتقوى هي إحدى الغايات الأساسية للصيام.
- في السنة النبوية: نهى النبي ﷺ عن ادخار لحوم الأضاحي في إحدى السنوات بسبب كثرة المحتاجين والوافدين، ثم أذن في ادخارها بعد زوال السبب؛ مما يوضح مراعاة الظروف وتحقيق مصلحة الناس.

ثالثًا: العناصر الأساسية لفقه المقاصد

يتضمن فقه المقاصد ثلاثة عناصر مترابطة:

- التعليل: البحث عن العلة والغاية من الحكم الشرعي عندما يمكن معرفتها من الأدلة.
- فهم الغايات: إدراك الأهداف التي يسعى الحكم إلى تحقيقها، مثل النهي عن الفحشاء والمنكر من خلال الصلاة.
- مراعاة المصالح والمفاسد: النظر في آثار تطبيق الأحكام، بما يحقق الخير ويدفع الضرر وفق ضوابط الشريعة.

ومع ذلك، ليست جميع الأحكام قابلة للإدراك العقلي لعلتها التفصيلية؛ فبعض العبادات توقيفية، مثل عدد ركعات

الصلوات وأوقات العبادات، والأصل فيها الالتزام بما شرعه الله تعالى.

رابعًا: المقاصد الشرعية الخمسة

تتمثل المقاصد الأساسية التي ذكرها علماء الشريعة في حفظ الضروريات الآتية:

١. **حفظ الدين**: بصيانة العقيدة والعبادة.
 ٢. **حفظ النفس**: بحماية حياة الإنسان ومنع الاعتداء عليه.
 ٣. **حفظ العقل**: بمنع ما يفسده، وتشجيع العلم والتعليم والتفكير السليم.
 ٤. **حفظ النسل والعرض**: بصيانة الأسرة والكرامة والأعراض.
 ٥. **حفظ المال**: بحمايته من السرقة والاعتداء والتبديد.
- وقد ظهرت مراعاة هذه المقاصد في اجتهادات الصحابة، ومنها موقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أرض السواد، حيث راعى مصلحة الأجيال القادمة، وكذلك مراعاته لظروف المجاعة عند النظر في تطبيق حد السرقة على المضطر.

خامسًا: أهمية فقه المقاصد في الاجتهاد

يساعد فقه المقاصد المجتهد على فهم الأحكام وتطبيقها بما يحقق غايات الشريعة، مع مراعاة اختلاف الظروف والأحوال . فإذا ترتب على تطبيق حكم في واقعة معينة ضرر معتبر، وجب

النظر في الأدلة والضوابط الشرعية لتحديد الحكم المناسب،
دون إهدار النصوص أو تجاوز أحكام الشريعة.
وقد أسهم عدد من العلماء في تطوير هذا العلم، منهم الحكيم
الترمذي، والقرافي، وإمام الحرمين الجويني، وأبو حامد الغزالي،
والإمام الشاطبي.

الخاتمة

فقه المقاصد هو منهج لفهم الشريعة من خلال غاياتها وحكمها،
ويؤكد أن الأحكام الشرعية لا تنفصل عن تحقيق العبودية لله
تعالى ومصالح الناس في الدنيا والآخرة. وتتمثل أهم قواعده في
جلب المصالح، ودرء المفاسد، وحفظ الضروريات الخمس،
مع الالتزام بالنصوص الشرعية ومراعاة ضوابط الاجتهاد.

فقه المقاصد للقرآن الكريم

مفهوم فقه المقاصد للقرآن الكريم

فقه المقاصد للقرآن الكريم هو فهم الغايات والأهداف والحِكم التي أراد الله تعالى تحقيقها من خلال الآيات والأحكام القرآنية، وعدم الاكتفاء بظاهر النصوص، بل النظر إلى المعاني والمقاصد التي ترشد إليها، وفق الأدلة والضوابط الشرعية.

أولاً: أهم مقاصد القرآن الكريم

١. تحقيق العبودية لله تعالى: وهي الغاية الأساسية من خلق الإنسان وتوجيهه إلى عبادة الله وطاعته.
 ٢. تحقيق مصالح العباد: من خلال تنظيم حياة الإنسان في الدنيا، وتحقيق سعادته وفلاحه في الآخرة.
 ٣. جلب المصالح ودرء المفاسد: أي تحقيق الخير والنفع للناس، ومنع الظلم والضرر والفساد.
 ٤. تزكية النفوس وإصلاح الأخلاق: بتربية الإنسان على التقوى والصدق والأمانة والعدل.
 ٥. حفظ الضروريات الخمس: وهي الدين، والنفس، والعقل، والنسل والعرض، والمال.
 ٦. تحقيق التعارف والتعاون بين الناس: قال تعالى: ﴿لَتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات] 13، أي إن اختلاف الشعوب والقبائل يتيح التعارف والتعاون، لا التنازع والعداوة.
- ثانياً: أمثلة على مقاصد القرآن الكريم

١. مقصد الصيام: قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 183]، فالتقوى غاية أساسية من تشريع الصيام.
٢. مقصد الصلاة: قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: 45]، ومن مقاصدها تهذيب السلوك وإبعاد الإنسان عن المعاصي.
٣. مقصد الزكاة: قال تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْغِفُونَ﴾ [الروم: 39]، وفيها ابتغاء رضا الله وتحقيق التكافل الاجتماعي.
٤. مقصد التعارف: قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: 13]، وفي ذلك بيان لغاية التعارف والتعاون بين البشر.

ثالثاً: كيفية معرفة مقاصد القرآن الكريم

يمكن التعرف على المقاصد القرآنية من خلال:

١. تدبر الآيات وفهم معانيها وسياقاتها.
٢. النظر في الآيات التي تبين علة الحكم أو غايتها، مثل قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.
٣. جمع الآيات المتعلقة بموضوع واحد واستقراءها للوصول إلى المقاصد العامة.
٤. الاستعانة بتفسير العلماء وأقوالهم، مع مراعاة السنة النبوية وأصول الاستنباط الشرعي.

رابعًا: أهمية فقه المقاصد للقرآن الكريم

يساعد فقه المقاصد على فهم القرآن الكريم فهمًا أعمق، وإدراك الحكمة من الأحكام، وربط النصوص بغاياتها، وتوجيه الاجتهاد نحو تحقيق المصالح ودفع المفاسد، مع الالتزام بالنصوص وعدم تحميلها معاني لا تدل عليها.

الخاتمة

إن فقه المقاصد للقرآن الكريم يقوم على فهم الآيات في ضوء غاياتها وأهدافها، وفي مقدمتها تحقيق العبودية لله تعالى، وإصلاح الإنسان والمجتمع، وتحقيق مصالح الدنيا والآخرة. ولذلك فإن فهم مقاصد القرآن يجمع بين فهم النص القرآني وإدراك حكمته وغاياته الشرعية.

التفسير الموضوعي ومقاصد السور: المفهوم والعلاقة والمنهج المحور الأول: مفهوم التفسير الموضوعي للسورة ومجالاته

يُعنى التفسير الموضوعي للسورة بدراسة السورة بوصفها بناءً قرآنياً متكاملًا، تُحلَّل فيه موضوعاتها ومقاطعها، وتُكشف العلاقات التي تربط بينها، لفهم بنائها الدلالي العام. ولا يقتصر على تفسير الآيات منفردة، بل يتجاوز ذلك إلى دراسة وظائفها في سياقاتها ومدى إسهامها في تشكيل المعنى الكلي (1).

ويختلف هذا المنهج عن التفسير التحليلي من حيث زاوية النظر؛ إذ يعالج التحليلي الآيات وفق ترتيبها كاشفًا عن دلالاتها اللغوية والتفسيرية، بينما يستثمر الموضوعي نتائج التحليل في دراسة العلاقات بين الآيات والمقاطع. فالعلاقة بينهما تكاملية: يمد التحليل التفصيلي الدراسة بالمادة التفسيرية، ويعيد النظر الموضوعي تنظيمها للكشف عن الدلالات الكلية (2).

وتتعدد مجالات التفسير الموضوعي بين دراسة المصطلح القرآني، والقضية الواردة في مواضع متعددة، والموضوع المشترك بين السور، ودراسة السورة كاملة من حيث موضوعاتها وترباط مقاطعها. ويقتضي المجال الأخير مراعاة ترتيب الآيات وسياقاتها، وتحليل العلاقات بينها، بدل الاكتفاء بتصنيف موضوعاتها تصنيفًا منفصلًا (3).

وفي دراسة سورة النحل، لا يكفي حصر موضوعاتها (التوحيد، النعم، الوحي، البعث، التشريع)؛ بل ينبغي تحليل وظائفها والعلاقات القائمة بينها، وتحديد مدى إسهامها في بناء المعنى الكلي. ولذلك تعتمد الدراسة الاستقراء والتحليل السياقي والموضوعي، وتجعل تقسيم السورة إلى مقاطع نتيجةً لقرائن النص، لا افتراضًا سابقًا عليه.



المحور الثاني: مفهوم المقاصد العامة للسور

والتمييز بينها وبين موضوعاتها

يُقصد بالمقاصد العامة للسور، في الإطار الإجرائي لهذه الدراسة، الغايات والمعاني الكلية التي يُستدل على توجه السورة إلى تقريرها أو ترسيخها من خلال استقراء آياتها، وتحليل سياقاتها، ودراسة العلاقات بين موضوعاتها ومقاطعها. وهذا تعريف إجرائي لضبط البحث، لا ادعاء بأنه اصطلاح متفق عليه(4).

ويقتضي تحديد المقاصد التمييز بين الموضوع والمحور والمقصد؛ فالموضوع يحدد القضية التي يتناولها الخطاب، والمحور يشير إلى القضية المركزية التي تنتظم حولها الموضوعات، أما المقصد فيتعلق بالغاية التي يُستدل على أن بناء السورة يخدمها. وقد يجتمع المحور والمقصد في معنى واحد إذا أثبت التحليل أن القضية المركزية تؤدي وظيفة تفسيرية تتجاوز وصف المحتوى.

كما ينبغي التمييز بين المقاصد العامة للقرآن ومقاصد السور الخاصة؛ فالأولى تتصل بالغايات الكبرى للخطاب القرآني، بينما تتعلق الثانية بالغايات التي يكشف عنها استقراء سورة بعينها. ولا يكفي ورود أصل قرآني عام في سورة لإثبات أنه مقصدها المميز، بل ينبغي بيان وظيفته في بنائها الدلالي.

وبناءً على ذلك، لا يُستخلص مقصد سورة النحل بمجرد جمع موضوعاتها، وإنما بتحليل وظائفها، واستخلاص العلاقات

بينها، وقياس قدرة المعاني المقترحة على تفسير البناء العام. ويشترط في المقصد المقترح استناده إلى دلالات النص، واتساقه مع السياقات، وشموله الموضوعات الرئيسة دون إلغاء وظائفها المتميزة، وقدرته على تفسير خصوصية السورة.



المحور الثالث: العلاقة بين التفسير الموضوعي

واستقراء المقاصد

تقوم العلاقة بين التفسير الموضوعي واستقراء المقاصد على التكامل بين تحليل المادة القرآنية والكشف عن غاياتها الكلية؛ فالتفسير الموضوعي يحدد الموضوعات ويدرس سياقاتها وعلاقاتها، بينما يتولى البحث المقاصدي استخلاص الغايات التي يمكن أن تفسر انتظامها ووظائفها(5).

وتتم هذه العملية عبر مرحلتين مترابطتين: تحليل الآيات والمقاطع وتحديد موضوعاتها وقرائن الانتقال بينها؛ ثم استنباط المعاني الكلية المحتملة وترجيحها في ضوء مجموع السورة. ولا يكفي وجود آية تؤيد معنى معيناً لإثبات أنه مقصد السورة العام، بل ينبغي أن تتناسب قوة الدليل مع سعة الدعوى، وأن يفسر المعنى المقترح العلاقات بين الموضوعات المختلفة.

وُتستثمر أقوال المفسرين في بيان الدلالات ومقارنة أوجه التفسير والكشف عن العلاقات المحتملة، مع التمييز بين ما يصرح به المفسر وما يستنبطه الباحث. كما ينبغي التفريق بين صحة النقل عن المصدر وكفاية الاستدلال به؛ فقد يصح النقل دون أن يكون كافياً لإثبات مقصد جامع. وتعتمد الدراسة على سورة النحل في تحليل الآيات في سياقاتها، وتحديد المقاطع وموضوعاتها، ورصد العلاقات بينها، ثم صياغة المقاصد

المحتملة وترجيحها والموازنة بينها، مع إبقاء النتائج قابلة للمراجعة حتى تستكمل مراحل الاستقراء.



المحور الرابع: السياق والترابط الموضوعي في استقراء المقاصد

يمثل السياق والترابط الموضوعي أداتين أساسيتين لاستقراء المقاصد واستنباط المناسب منها؛ إذ يضبط السياق دلالة الآية ووظيفتها في موضعها، بينما يكشف الترابط عن العلاقات التي تصل بين موضوعات السورة ومقاطعها.

أولاً: السياق. يُقصد به مجموع القرائن اللفظية والدلالية التي تعين على فهم الآية، وتشمل الآيات السابقة واللاحقة، وموضوع المقطع، ومقام الخطاب، والسياق العام للسورة. ولا يقتصر دوره على تحديد المعنى، بل يمتد إلى بيان وظيفته؛ فقد ترد القضية في مقام الاحتجاج، أو يأتي ذكر النعمة دليلاً على القدرة والتدبير، أو يرتبط الحكم التشريعي بتوجيه أخلاقي. ولذلك لا يصح تعميم وظيفة معينة على جميع المواضع المتشابهة موضوعياً دون تحليل سياقاتها.

ثانياً: الترابط الموضوعي. هو العلاقات الدلالية والاستدلالية التي تصل بين موضوعات السورة، كالتعليل والاستدلال والمقابلة والتفصيل والانتقال من تقرير أصل عقدي إلى بيان مقتضياته العملية. ويقتضي تحليله تحديد نوع العلاقة وقرائنهما، وعدم الاكتفاء بمجرد التجاور أو التشابه الموضوعي. وفي سورة النحل، يمكن دراسة العلاقات بين النعم والتوحيد والشكر والجحود، مع تحليل صلة هذه الموضوعات بالوحي والبعث والتشريع. غير أن تحديد مركزيتها في البناء العام يظل

مرهوناً بنتائج الاستقراء، ولا يُفترض مسبقاً. وتعتمد الدراسة خطوات مترابطة تبدأ بتحليل الآيات في سياقاتها، ثم تحديد موضوعات المقاطع ووظائفها، ورصد العلاقات بينها، واستخلاص المقاصد المحتملة في ضوء مجموع السورة، ويُرجح المقصد بقدر ما تؤيده الأدلة ويتسق مع السياقات ويفسر العلاقات دون تعميم مفرط أو تأويل متكلف.



المقاصد المرشحة والمقصد الجامع: الضبط

الاصطلاحي والمنهج الإجرائي

المحور الأول: ضبط مصطلحات الدراسة إجرائيًا

يقتضي استقراء مقاصد السور ضبط المصطلحات التي تحكم الانتقال من الدلالة الجزئية إلى النتيجة الكلية. وتعتمد الدراسة المصطلحات الآتية:

١. **المعنى المقاصدي المحتمل**: دلالة أولية في آية أو مقطع تشير إلى غاية محتملة.
٢. **المقصد المرشح**: معنى تدعمه شواهد أولية معتبرة على مستوى السورة.
٣. **المقصد العام المثبت**: غاية اجتازت الاستقراء ، وأيدتها الأدلة وفق معايير الدراسة.
٤. **المقصد الجامع**: صياغة كلية تُرجح لتفسير العلاقة بين المقاصد العامة المثبتة، وبيان انتظامها في البناء العام للسورة.

وهذه اصطلاحات إجرائية خاصة بالدراسة، ما لم يثبت اعتمادها بهذه الدلالات في مصادر سابقة. كما أن وصف المقصد بأنه "مثبت" يدل على رجحان دلالاته وفق الأدلة، لا على القطع بجميع أبعاده. ويختلف المقصد العام عن الجامع من حيث الوظيفة؛ فالأول غاية كلية ثبتت صلتها بالسورة، أما الثاني فيفسر كيفية انتظام المقاصد العامة وعلاقاتها. ولا

يُفترض إمكان رد جميع المقاصد إلى غاية واحدة، بل يُستنبط ذلك في ضوء الترجيح.



المحور الثاني: التمييز بين المقاصد والموضوعات والوسائل والأدلة والنتائج

يتطلب استقراء المقاصد تصنيف المعاني بحسب وظائفها، حتى لا تختلط الغايات بالموضوعات أو بالوسائل (6).
أولاً: الموضوع والمقصد. الموضوع هو القضية التي يتناولها الخطاب، أما المقصد فهو الغاية التي يُستدل على أن معالجة القضية تخدمها. وقد تتكامل موضوعات متعددة في خدمة مقصد واحد، كما قد يؤدي الموضوع الواحد وظائف مختلفة بحسب السياق.

ثانياً: المقصد المستقل والتابع. المستقل هو الغاية التي تثبت لها وظيفة مقاصدية متميزة، بينما يتصل التابع بغاية أوسع ويسهم في تحقيقها. ولا تعني التبعية قلة الأهمية، بل تحدد الموقع النسبي للمعنى في البناء العام.

ثالثاً: المقاصد والوسائل. الوسيلة ما يُتخذ طريقاً إلى غاية أخرى، وقد تظهر في صورة توجيه عملي أو أسلوب استدلال أو مثال توضيحي. ويُحدد تصنيف المعنى بحسب وظيفته السياقية، لا بمجرد صيغته اللفظية.

رابعاً: المقاصد والأدلة. الدليل ما يسوقه الخطاب لإثبات قضية أو تقرير معنى، كدلالات الخلق والنعم وضرب الأمثال. أما المقصد فيتعلق بالغاية التي يتجه الخطاب إلى تقريرها. وقد تكشف الأدلة المتضافرة عن طبيعة المقصد، لكنها لا تتحول بالضرورة إلى مقاصد مستقلة.

خامسًا: المقاصد والنتائج. النتيجة ما يترتب على مقصد أو على الاستجابة له، وقد تكون اعتقادية أو سلوكية أو أخلاقية. ويُحدد ما إذا كانت النتيجة غايةً مقصودة أو أثرًا مترتبًا من خلال تحليل السياق ووظيفة الخطاب.

وتُطبق هذه التمييزات على موضوعات سورة النحل وفق نتائج التحليل، مع إبقاء التصنيف قابلاً للمراجعة إذا كشف الاستقراء عن وظيفة مختلفة للمعنى.



المحور الثالث: معايير استخلاص المقاصد المرشحة

وترجيح المقصد الجامع

تُستخلص المقاصد المرشحة وفق معايير تضمن استنادها إلى النص، وقدرتها على تفسير البناء العام للسورة:

١. الاستناد النصي: وجود شواهد معتبرة تؤيد المعنى المقترح.
٢. اتساق السياق: انسجام المقصد مع دلالات الآيات ووظائف المقاطع.
٣. الشمول المناسب: قدرته على تفسير الموضوعات الرئيسية دون تجاوز ما تسمح به الأدلة.
٤. القدرة التفسيرية: إسهامه في بيان العلاقات بين الموضوعات والمقاطع.
٥. التمييز الوظيفي: وضوح موقعه بين المقاصد المستقلة والتابعة والوسائل والأدلة والنتائج.
٦. الخصوصية: قدرته على تفسير السمات المميزة للسورة، بدل الاكتفاء بعبارة عامة تصلح لسور متعددة.
٧. سلامة الاستدلال: خلو النتيجة من الانتقاء أو التأويل المتكلف، مع مراعاة الشواهد المؤيدة والقرائن التي قد تحد من عمومية المقصد.

ولا يكفي تحقق معيار واحد لإثبات المقصد الجامع، بل ينبغي النظر في مجموع المعايير ومدى توافقها مع الأدلة. وإذا تعذر تفسير موضوع بارز في ضوء المقصد المقترح، وجب مراجعة

الصياغة أو تقييدها، بدل تأويل النص للحفاظ على فرضية
سابقة.



المحور الرابع: إجراءات استقراء المقاصد وترجيح المقصد الجامع

تعتمد الدراسة مسارًا إجرائيًا متدرجًا يبدأ بتحليل النص وينتهي بالموازنة بين الصيغ المحتملة للمقصد الجامع:

١. تحليل المادة التفسيرية: دراسة آيات سورة النحل في سياقاتها، والاستفادة من مصادر التفسير المعتمدة، مع التحقق من صحة النقول ودقة توظيفها.
٢. رصد المعاني المقاصدية المحتملة: تحديد الدلالات التي قد تشير إلى غايات تتجاوز المعنى الجزئي، مع توثيق مواضعها وبيان وجه الاستدلال بها.
٣. بناء قائمة المقاصد المرشحة: جمع المعاني المتقاربة، وتقليل التكرار، وتصنيفها تصنيفًا أوليًا بحسب وظائفها.
٤. استخلاص المقاصد المرشحة: فحص شواهداها في مجموع السورة، وتحليل اتساقها السياقي، ومدى قدرتها على تفسير العلاقات بين المقاطع.
٥. ترجيح المقاصد العامة: اعتماد المعاني التي تؤيدها الأدلة بدرجة كافية، مع استبعاد ما لا يفسر الموضوعات الرئيسية أو يتعارض مع قرائن معتبرة.
٦. صياغة المقصد الجامع: بناء صيغ محتملة انطلاقًا من النتائج المثبتة، ثم مقارنتها من حيث الشمول التفسيري والخصوصية والدقة.

٧. الموازنة النهائية: بيان أسباب ترجيح الصيغة المختارة، وأوجه قصور البدائل، وحدود النتيجة التي تسمح بها الأدلة.

ويُشترط في المقصد الجامع أن يفسر العلاقات بين المقاصد العامة المثبتة، لا أن يكتفي بجمع أسماء الموضوعات. فإذا لم تنهض الأدلة بترجيح صياغة جامعة، اقتصر البحث على المقاصد التي ثبتت صلتها بالسورة، مع بيان حدود الاستنتاج. وبذلك تقوم منهجية الدراسة على الانتقال من التحليل التفسيري إلى الاستقراء الموضوعي، ثم استخلاص المقاصد المرشحة وترجيح المقاصد العامة، وصولاً إلى الموازنة بين الصيغ المحتملة للمقصد الجامع، بما يضمن الفصل بين الفرضيات الأولية والنتائج المستندة إلى الأدلة، مع إبقاء النتائج قابلة للمراجعة العلمية.

الهوامش

- (1) ينظر في مفهوم التفسير الموضوعي للسورة: الدراسات المنهجية المتخصصة التي تعرفه بالنظر في كلية السورة ونظمها.
- (2) فتحي بن جمعة أحمد، «التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: مجالاته ومنهجية البحث فيه».
- (3) مصطفى أكرور، «التفسير الموضوعي: أصوله وضوابطه»، دراسات إسلامية، المجلد ٨، العدد ٢، ٢٠١٣.
- (4) ينظر: «استثمار مقاصد القرآن في الدراسات الموضوعية: التفسير الموضوعي للسورة أنموذجاً»، مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية، المجلد ١٢، العدد ٢، ٢٠٢٠، ص ١٤٩-١٧٢.

(5) حازم حسني زيود، «التفسير الموضوعي والتفسير المقاصدي للقرآن الكريم: تكامل أم تنوع؟ دراسة في المصطلح والأهداف»، المجلة العالمية للعلوم الشرعية والقانونية، العدد ٣٨، ٢٠٢١.

(6) ينظر: «الوحدة الموضوعية للسورة الواحدة بين القبول والرد»، مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية.



التعريف بسورة النحل وإطار سياقها المحور الأول: تسمية السورة ووجه تسميتها وترتيبها في المصحف وعدد آياتها

تعرف السورة في المصاحف وكتب التفسير باسم سورة النحل، وسُميت بذلك لورود ذكر النحل فيها في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۖ ثُمَّ كَلَّمِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَأَسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٨-٦٩]. وتُسمى أيضًا سورة النِّعَم عند بعض المفسرين؛ لكثرة ما ورد فيها من تعداد نعم الله تعالى على عباده، وما ارتبط بذلك من الاستدلال على قدرته وتدبيره واستحقاقه العبادة والشكر(1).

وتتجاوز دلالة تسمية السورة حدود التعريف بها إلى الإشارة إلى جانب بارز من بنائها الموضوعي؛ فذكر النحل والعسل يأتي ضمن سياق أوسع يعرض مظاهر الخلق والتسخير والرزق، ويوجه النظر إلى ما تنطوي عليه هذه المظاهر من دلائل القدرة الإلهية. غير أن هذه الدلالة لا تكفي وحدها للحكم بأن النعم هي المقصد الجامع للسورة؛ إذ يقتضي ذلك استقراء سائر موضوعاتها، وفحص العلاقات بين مقاطعها، والنظر في موقع النعم ضمن البناء الكلي. ومن ثم، تُستحضر التسمية في هذه الدراسة بوصفها قرينة تعريفية وموضوعية أولية، لا دليلًا حاسمًا على المقصد الجامع.

وتقع سورة النحل في الترتيب السادس عشر من المصحف، بعد سورة الحجر وقبل سورة الإسراء، وعدد آياتها مائة وثمان وعشرون آية وفق العدد المثبت في المصاحف المتداولة. (٢) ويجب التمييز هنا بين ترتيب السورة في المصحف وترتيب نزولها؛ فالأول هو موضعها في النسق المصحفي، أما الثاني فيتصل بتاريخ نزولها، ولا يلزم من الترتيب المصحفي أن يكون مطابقاً للترتيب الزمني للنزول.

وتفيد هذه البيانات في ضبط موضوع الدراسة وتحديد مجالها، لكنها لا تنهض بذاتها دليلاً على مقصد السورة أو وحدتها الموضوعية؛ فالتعريف بالسورة مرحلة تمهيدية، بينما يتطلب تحديد مقاصدها تحليل آياتها في سياقاتها، واستقراء موضوعاتها، ودراسة العلاقات التي تربط مقاطعها بعضها ببعض.

المحور الثاني: مكية السورة ومدنيتها وأثر ذلك في فهم موضوعاتها

تُعد سورة النحل في جملة السور المكية، وهو التصنيف المشهور في كتب التفسير وعلوم القرآن، مع ورود أقوال تستثني بعض آياتها من الحكم العام. ويقتضي التحقيق في هذه المسألة التمييز بين الحكم على السورة بأكملها، والحكم على آيات بعينها وفق ما ورد في الروايات المتعلقة بأسباب النزول أو ترتيب النزول؛ فكون السورة مكية لا يستلزم بالضرورة أن تكون جميع آياتها قد نزلت في مرحلة واحدة أو في ظرف واحد، كما أن القول بمدنية آية منها لا يكفي وحده للحكم بمدنية السورة كلها (3). وتبرز أهمية هذا التصنيف في أنه يتيح قراءة موضوعات السورة في ضوء السياق العام للدعوة في المرحلة المكية، حيث تحتل قضايا التوحيد والنبوة والوحي والبعث والجزاء موقعاً مركزياً في الخطاب القرآني. وتتجلى هذه القضايا في افتتاح السورة بقوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١]، ثم في تقرير وحدانية الله من خلال دلائل الخلق، ومناقشة مواقف المشركين من الوحي والرسالة، والتحذير من إنكار البعث، وبيان مسؤولية الإنسان عن أعماله. ولا يقتصر الخطاب في السورة على تقرير العقائد في صورتها المجردة؛ بل يربطها بالنظر في الكون والإنسان ومظاهر الرزق والتسخير، ويصل الإيمان بمقتضياته العملية من الشكر والوفاء بالعهد والعدل والإحسان. وهذا التداخل بين القضايا العقدية

والتوجيهات العملية يتيح دراسة الكيفية التي تنتقل بها السورة من الاستدلال على أصول الإيمان إلى بيان مقتضياته في السلوك، من غير افتراض أن كل توجيه عملي يؤدي الوظيفة نفسها أو أن جميع الموضوعات تندرج في مقصد واحد قبل معرفة ذلك.

كما أن السياق المكي يساعد على فهم طبيعة الخطاب الموجه إلى المشركين، وما يتضمنه من احتجاج على اتخاذ الشركاء، ونقض للمعتقدات الباطلة، واستدلال بآيات الخلق والنعم على وحدانية الله. غير أن هذا الإطار التاريخي العام لا يغني عن تحليل السياق الداخلي للآيات؛ إذ لا تُفهم دلالة الآية بمجرد تصنيف السورة مكية، وإنما يُنظر كذلك في نظم الآيات، وموضوع المقطع، وما يسبقه وما يلحقه، وعلاقته بسائر موضوعات السورة.

وعليه: يُعتمد وصف سورة النحل بالمكية بوصفه إطارًا تاريخيًا وتفسيريًا عامًا، مع إثبات الاستثناءات المنقولة في مواضعها بعد التحقق من مصادرها. وتُوظف هذه المعلومة في تفسير طبيعة الخطاب وموضوعاته، لا في تقرير المقصد الجامع بصورة مسبقة.

المحور الثالث: مناسبة السورة لما قبلها وما بعدها

وموقعها في سياقها القرآني

تقع سورة النحل بين سورتي الحجر والإسراء، وتُدرس مناسبتها لهما في ضوء العلاقات الموضوعية والدلالية التي يمكن أن يكشف عنها ترتيب السور ومضامينها، مع التمييز بين المناسبة التي يسندها تشابه الموضوعات أو تكاملها، وبين دعوى الارتباط المقصود التي تحتاج إلى دليل أخص؛ فمجرد التجاور في المصحف لا يكفي لإثبات علاقة تفسيرية محددة، وإنما ينبغي أن تقوم دراسة المناسبة على ملاحظة النصوص ومقارنة موضوعاتها ووظائفها.

تُعنى سورة الحجر، في جملة موضوعاتها، بتقرير صدق الرسالة، وبيان موقف المكذبين، وعرض نماذج من مصائر الأمم السابقة، وتأكيد حفظ القرآن، كما تتناول قصة إبراهيم عليه السلام ومظاهر من قصة لوط عليه السلام. وتفتتح سورة النحل بتقرير قرب أمر الله وتنزيهه عن الشرك، ثم تتوسع في الاستدلال بآيات الخلق والنعم على وحدانيته، وتناقش موقف المشركين من الوحي والبعث، وتعرض جملة من التوجيهات العملية. ويمكن ملاحظة صلة موضوعية عامة بين السورتين في تقرير الرسالة ومواجهة التكذيب وتثبيت أصول الاعتقاد؛ غير أن تحديد طبيعة هذه الصلة ودرجة قوتها يقتضي تحليل السياقات المحددة، لا الاكتفاء بإجمال الموضوعات المشتركة(4).

أما سورة الإسراء، فتفتتح بذكر الإسراء، ثم تتناول قضايا الوحي والهداية ومسؤولية الإنسان، وتعرض جملة من الأوامر والنواهي الأخلاقية، وتناقش مواقف من إنكار الرسالة والبعث. ويظهر بين سورة النحل وسورة الإسراء تقارب في معالجة قضايا الوحي والرسالة، وفي وصل الإيمان بالمسؤولية الأخلاقية والسلوكية. كما أن سورة النحل تتضمن توجيهات إلى العدل والإحسان والوفاء بالعهد والدعوة بالحكمة، بينما تشتمل سورة الإسراء على وصايا أخلاقية وتشريعية متعددة. وهذا التقارب يصلح مدخلاً للموازنة الموضوعية، لكنه لا يثبت وحده أن السورتين تنتظمان في مقصد واحد أو أن إحداها تنتمي للأخرى في جميع موضوعاتهما.

ويتطلب النظر في موقع سورة النحل ضمن سياقها القرآني الجمع بين مستويين متكاملين: الأول هو النظر في مناسبتها للسورتين المجاورتين، والثاني هو تحليل بنيتهما الداخلية وعلاقات مقاطعها. ولا ينبغي أن يحل المستوى الأول محل الثاني؛ لأن المقصد الخاص بالسورة لا يُستخلص من علاقتها بما يجاورها فحسب، بل من مجموع خطابها، وطريقة انتظام موضوعاتها، والوظائف التي تؤديها المقاطع والعناصر المميزة فيها.

وتأسيساً على ذلك، ستُعامل المناسبة بين سورة النحل وما قبلها وما بعدها بوصفها مجالاً للفحص والاستئناس، لا أصلاً مستقلاً يُبنى عليه تقرير المقصد الجامع. ويكون الاحتجاج بهذه

المناسبة أقوى حين تُحدّد عناصرها النصية، وتُبيّن أوجه الاتفاق والاختلاف، ويُفصل بين التشابه الموضوعي العام والتكامل الدلالي الذي يمكن البرهنة عليه.



المحور الرابع: الأغراض الإجمالية للسورة في ضوء مصادر التفسير

تكشف مراجعة التفسير عن تعدد القضايا التي تعالجها سورة النحل، وعن تداخلها ضمن سياقات تجمع بين تقرير أصول الاعتقاد والاستدلال بآيات الكون والنعم والتوجيه إلى مقتضيات الإيمان العملية. وتساعد أقوال المفسرين على تحديد هذه الأغراض الأولية، غير أن جمعها في قائمة موضوعات لا يساوي بعدُ الكشف عن المقصد الجامع؛ لأن الغرض الإجمالي قد يصف مجالاً من مجالات السورة، بينما يتطلب المقصد الجامع تفسير العلاقة بين مجالاتها ووظائفها في البناء الكلي.

يبرز التوحيد في السورة من خلال افتتاحها بالتنزيه عن الشرك، ثم عرض أدلة الخلق والتدبير، ومناقشة مواقف المشركين من عبادة غير الله. وتظهر هذه الوظيفة الاستدلالية في الانتقال من ذكر خلق السماوات والأرض والإنسان إلى عرض مظاهر التسخير والرزق، ثم توجيه النظر إلى ما تدل عليه من قدرة الخالق ووحدانيته. ويتيح هذا النسق فحص العلاقة بين الدليل الكوني والنتيجة العقدية، بدل النظر إلى آيات الخلق والنعم بوصفها أوصافاً منفصلة عن سياق الاحتجاج.

ويحتل الوحي والنبوة موقعاً مهماً في السورة؛ إذ تتناول السورة إنزال الوحي، ووظيفة الرسالة في البيان والهداية، ومواقف المكذبين من الرسول والقرآن. ويأتي هذا الموضوع في سياق

يتصل بتقرير التوحيد؛ لأن إثبات وحدانية الله لا ينفصل في الخطاب القرآني عن بيان مصدر الهداية التي جاء بها الوحي، وعن مسؤولية الإنسان تجاه ما بلغه من الحق. ومع ذلك، فإن العلاقة الدقيقة بين هذه القضايا ينبغي أن تُدرس من خلال مواقعها في المقاطع، وأدوات الربط، وطبيعة الخطاب في كل موضع.

ومن الأغراض الظاهرة كذلك تقرير البعث والجزاء، والتنبيه إلى عاقبة التكذيب، وبيان مسؤولية الإنسان عن أعماله. ويُلاحظ أن افتتاح السورة يذكر مجيء أمر الله وينهى عن استعجاله، ثم تتكرر في سياقاتها قضايا الجزاء ومصير المكذبين ومآل المتقين. ويتيح هذا التكرار التنبيه عن مدى إسهام البعث والجزاء في توجيه موضوعات السورة، ومدى اتصالهما بأدلة التوحيد وبالتوجيهات العملية؛ ولا يكفي مجرد تكرار القضية للحكم بأنها المقصد الجامع.

وتبرز النعم الإلهية بوصفها مجالاً واسعاً من مجالات السورة، إذ تتناول آياتها خلق الإنسان والأنعام، وتسخير ما في الكون، وإنزال المطر وإنبات الزروع والثمار، وذكر النحل وما يخرج من بطونها. ولا يقتصر عرض هذه النعم على الإخبار بمنافعها؛ بل تتصل دلالاتها في سياقات متعددة بالاستدلال على قدرة الله، وإظهار افتقار الإنسان إلى خالقه، والتنبيه إلى وجوب الشكر، وذم الجحود. ويُعد هذا التداخل بين النعمة والاستدلال والشكر

من المسائل الرئيسة التي ينبغي أن يكشف التحليل عن طبيعتها ومدى امتدادها في السورة.

كما تتضمن السورة توجيهات أخلاقية وتشريعية، منها الأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغى، والتحذير من نقض العهود، وبيان أحكام تتعلق بالحلال والحرام، والأمر بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، والتوجيه إلى الصبر. وتدل هذه الموضوعات على أن الخطاب في السورة لا يقف عند بيان أصول الاعتقاد، بل يتناول كذلك مقتضياتها العملية في حياة الإنسان. غير أن إدراج هذه التوجيهات ضمن الأغراض الإجمالية لا يغني عن تحليل علاقتها بالقضايا العقدية والاستدلالية؛ فقد تكون بعض الأحكام مقصدًا في مجالها، أو وسيلة لتحقيق غاية أخرى، أو نتيجة عملية لمبدأ عقدي، ويتوقف تعيين وظيفتها على أدلة السياق والتحليل.

ويظهر في السورة أيضًا حضور الأمثال والخطاب المتعلق بإبراهيم عليه السلام، بما يضيف إلى العرض الاستدلالي صورًا وطرائق متنوعة في بيان المعاني. وتنبع أهمية هذه العناصر من احتمال إسهامها في توضيح الفروق بين الحق والباطل، أو تجسيد معاني الشكر والتوحيد، أو وصل بعض موضوعات السورة ببعض. لكن تحديد هذه الوظائف يظل من عمل التحليل التفصيلي؛ فلا تُمنح الأمثال أو قصة إبراهيم وظيفة

جامعة لمجرد تميزها، وإنما يُنظر في دلالاتها المباشرة، ومواضع ورودها، وعلاقاتها بالسياق المحيط.

وبناءً على ما سبق، يمكن تحديد الأغراض الإجمالية الظاهرة في سورة النحل في المجالات الآتية: تقرير التوحيد ومواجهة الشرك؛ وبيان أدلة القدرة والتدبير من خلال الخلق والنعيم؛ وتقدير الوحي والنبوة ومناقشة مواقف المكذابين؛ وإثبات البعث والجزاء ومسؤولية الإنسان؛ وتوجيه الإنسان إلى الشكر والتحذير من الجحود؛ وبيان جملة من الأحكام والتوجيهات الأخلاقية والدعوية؛ وتوظيف الأمثال والخطاب المتعلق بإبراهيم عليه السلام في بيان المعاني والاستدلال عليها.



مقاصد سورة النحل في تفسير سيد قطب

المحور الأول: مصادر التفسير المعتمدة في دراسة سورة النحل ووظائفها البحثية

تقتضي دراسة مقاصد سورة النحل اعتماد مصادر تفسيرية متنوعة تتكامل في مناهجها واتجاهاتها، بما يتيح تحليل دلالات الآيات في سياقاتها، وفحص العلاقات بين موضوعات السورة ومقاطعها، والتمييز بين المعنى الذي يدل عليه النص مباشرة، والاستنباط الذي يحتاج إلى قرائن إضافية. ولا تتحقق هذه الغاية بمجرد جمع أقوال المفسرين، بل بحسن اختيار المصادر، وتحديد وظيفة كل منها، ومراعاة مناهج أصحابها عند المقارنة والترجيح.

وتعتمد الدراسة عددًا من التفاسير التراثية والمعاصرة، في مقدمتها جامع البيان للطبري، ومفاتيح الغيب للرازي، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي، والتحرير والتنوير لابن عاشور، وأضواء البيان للشنقيطي، وتيسير الكريم الرحمن للسعدي، وفي ظلال القرآن. ولا يعني هذا التعدد التعامل مع هذه المصادر على أنها متساوية في طبيعة الإفادة أو مرتبة الاحتجاج؛ إذ تختلف مناهجها في عرض الروايات، وتحرير المعاني اللغوية، ومناقشة المسائل الكلامية والفقهية، وتحليل السياق، واستنباط الهدايات والعلاقات الموضوعية.

يؤدي تفسير الطبري وظيفة أساسية في تحرير المعنى التفسيري المأثور، وجمع أقوال السلف، ومناقشة وجوه التأويل اعتمادًا

على اللغة والرواية والسياق. وتظهر أهمية هذا المصدر عند دراسة الآيات التي تتعدد فيها الأقوال، أو التي تتوقف سلامة الاستدلال فيها على التمييز بين المأثور الثابت والاجتهاد التفسيري. وتستفيد الدراسة منه في بناء قاعدة تفسيرية تضبط التحليل اللاحق، بحيث لا تُحمّل الآيات دلالات مقاصدية تتجاوز ما يحتمله معناها في ضوء الأقوال المعتبرة(1).

أما تفسير الرازي، *مفاتيح الغيب*، فيفيد في دراسة البنية الاستدلالية للآيات، ولا سيما المواضع التي تعرض أدلة الخلق والتدبير، وتناقش الشرك، وتقرر إمكان البعث أو تتناول قضايا النبوة. وتساعد مناقشاته العقلية على تفكيك مقدمات الاستدلال ونتائجه، والكشف عن الصلة بين الدليل والنتيجة التي يراد إثباتها. ومع ذلك، فإن الاستفادة منه في هذه الدراسة لا تعني نقل كل تفصيل كلامي إلى صلب البحث؛ بل تُنتقى المسائل التي تخدم تفسير الآيات، أو توضح وظيفتها الاستدلالية، أو تكشف عن علاقة موضوعها بما يجاوره(2).

ويُستفاد من تفسير القرطبي في تحرير الدلالات اللغوية والفقهية، وجمع الأقوال المتعلقة بالأحكام، وبيان ما يترتب على النص من توجيهات عملية. وتبرز أهميته عند تحليل الآيات التشريعية في سورة النحل، ومنها ما يتعلق بالحلال والحرام، والوفاء بالعهد، والعدل والإحسان، وما يتصل بهذه الموضوعات من مسائل تفسيرية وفقهية. ويقتضي المنهج التمييز بين المعنى التفسيري للآية، والحكم الفقهي المستنبط

منها، والدلالة التي يمكن توظيفها في دراسة المقاصد؛ فليست هذه المستويات مترادفة، ولا يصح الانتقال من أحدها إلى الآخر دون بيان وجه الاستدلال(3).

ويحتل تفسير ابن عاشور، التحرير والتنوير، موقعًا مهمًا في تحليل النظم القرآني، ودلالات السياق، ووجوه الاتصال بين الآيات، ومناسبات الانتقال من غرض إلى آخر. وتزداد أهمية هذا المصدر في الدراسة الحالية؛ لأن موضوعها لا يقتصر على تفسير مفردات السورة، بل يتناول كيفية انتظام موضوعاتها وعلاقات مقاطعها. ومن ثم، يمكن الإفادة من تحليلات ابن عاشور في معرفة مدى اتصال الآية بما قبلها وما بعدها، وتحديد الوظائف البلاغية والدلالية لبعض الانتقالات، مع إخضاع كل استنتاج لمقتضيات النص وعدم التسليم بصحة كل وجه من وجوه المناسبة لمجرد وروده في التفسير(4).

أما تفسير الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، فتتمثل أهم وظائفه في الإفادة من تفسير القرآن بالقرآن، ورد المعنى إلى نظائره القرآنية، ومقارنة المواضع التي تتناول موضوعًا واحدًا أو قضية متقاربة. وتساعد هذه الطريقة على معرفة الدلالات المستنبطة من سورة النحل في ضوء الاستعمال القرآني الأوسع، ومنع عزل الآية عن شبكة المعاني التي ترد في مواضع أخرى. غير أن الاستشهاد بآيات من سور أخرى لا يغني عن تحليل السياق الخاص لسورة النحل؛ إذ قد

تتفق الآيات في أصل المعنى، مع اختلاف الوظيفة التي تؤديها كل منها في سياقها(5).

ويُستفاد من تفسير السعدي في عرض المعنى الإجمالي للآيات بعبارة واضحة، وإبراز الهدايات الإيمانية والتربوية التي يدل عليها النص، مع العناية بربط بعض المعاني بمقتضياتها العملية. وتظهر فائدة هذا التفسير عند صياغة المعنى التفسيري الموجز، أو التحقق من وضوح وجه الاستنباط، أو استحضار ما تتضمنه الآيات من توجيه إيماني وسلوكي. ومع ذلك، لا تُعامل الهدايات المستنبطة بوصفها مقاصد عامة مستقلة بالضرورة؛ بل يُنظر في مدى تكررها، ودرجة دلالتها، وعلاقتها بالموضوعات الأخرى قبل تصنيفها في البناء المقاصدي للسورة(6).

ويأتي تفسير شهيد القرآن سيد قطب، مصدرًا تطبيقيًا مهمًا في تحليل الصورة الكلية للسورة، ومتابعة تدفق المعاني، وإبراز الروابط بين القضايا العقدية والتوجيهات العملية. وتنبع أهمية الإفادة منه من عنايته بالوحدة الموضوعية، وبالأثر الذي يحدثه ترتيب الآيات والمقاطع في توجيه المعنى، وبالصلة بين التصور الإيماني ومقتضياته في حياة الإنسان. غير أن هذه الإفادة لا تجعله المصدر الحاكم الوحيد في الدراسة؛ فالعنوان المعتمد لا يقيد البحث بمنهج شهيد القرآن، وإنما يجعل السياق والترابط الموضوعي إطارًا للتحليل. ولذلك تُقارن ملاحظاته بما يقدمه غيره من المفسرين، ويُميز بين المعنى الذي يسنده النص،

والتحليل الذي يقترحه المفسر، والاستنباط الذي يحتاج إلى استدلال مستقل(7).

وبناء على ذلك، تتحدد وظائف المصادر في ثلاثة مستويات متكاملة: تأسيس المعنى التفسيري وضبطه، وتحليل السياق والعلاقات الاستدلالية، ثم الإفادة من الدلالات المستنبطة في بناء التصور المقاصدي. ولا يُشترط أن يُستحضر كل مصدر عند كل آية؛ بل تتحدد الحاجة إليه وفق طبيعة المسألة؛ فإذا كانت المسألة لغوية أو مأثورة، قُدِّم ما يخدم تحريرها؛ وإذا كانت استدلالية، نُظِر في تحليل الدليل ونتيجته؛ وإذا كانت سياقية أو موضوعية، وُسِّعت المقارنة بما يعين على فحص العلاقة بين أجزاء الخطاب. وبهذا يُتجنب الحشد المرجعي الذي لا يضيف إلى التحليل، كما يُتجنب الاختصار على مصدر واحد قد لا يستوعب جميع جوانب المسألة.



المحور الثاني: ملامح منهج شهيد القرآن في تفسير السورة وتحليل سياقها وترباط موضوعاتها

يمثل تفسير في ظلال القرآن أحد المصادر المعاصرة التي تعتنى بإبراز الأبعاد الكلية للخطاب القرآني، وربط المعاني الجزئية بالتصور العام الذي تنتظم فيه. ويظهر هذا التوجه في طريقة شهيد القرآن في تناول السور؛ إذ لا يقف عند شرح المفردات أو عرض الأقوال التفسيرية، بل يسعى إلى إبراز حركة المعاني، وتتابع القضايا، وأثر ترتيبها في تشكيل التصور الإيماني وتوجيه السلوك. وتتيح هذه الخصائص الإفادة من تفسيره في دراسة سورة النحل، بشرط التمييز بين وصف منهجه العام وبين إثبات تطبيقاته التفصيلية في مواضع السورة.

ومن أبرز ملامح منهجه العناية بالسياق بوصفه عنصراً مؤثراً في توجيه الدلالة؛ فالآية عند تحليلها لا تُدرس باعتبارها وحدة منفصلة فحسب، بل يُنظر في موقعها ضمن المقطع الذي وردت فيه، وفي علاقتها بما يسبقها ويلحقها، وفي القضية التي يخدمها ورودها في ذلك الموضع. وتفيد هذه النظرة في دراسة انتقالات سورة النحل من تقرير التوحيد إلى عرض دلائل الخلق والنعم، ومن مناقشة مواقف المكذبين إلى بيان مقتضيات الإيمان العملية. غير أن إثبات وظيفة سياقية محددة لكل انتقال يقتضي الرجوع إلى نص التفسير نفسه، ومقارنة تحليله بدلالة الآيات؛ فلا يكفي وصف منهج المفسر بالعناية بالسياق لإثبات أن كل علاقة يقترحها صحيحة أو لازمة.

ويتصل بذلك اهتمام شهيد القرآن بإبراز الترابط بين موضوعات السورة، وعدم الاختصار على ترتيب المسائل في قوائم منفصلة. وتتمثل القيمة المنهجية لهذا الاهتمام في توجيه الباحث إلى السؤال عن وظيفة الموضوع في البناء الكلي، لا عن مجرد وجوده؛ فعرض النعم، مثلاً، يمكن أن يُدرس من جهة تعدد مظاهرها، كما يمكن أن يُدرس من جهة وظيفتها الاستدلالية، وصلتها بتقرير التوحيد، وما يترتب عليها من الدعوة إلى الشكر والتحذير من الجحود. والانتقال من الوصف إلى تحليل الوظيفة هو ما تحتاج إليه الدراسة المقاصدية، مع بقاء العلاقة المقترحة خاضعة للترجيح بحسب السياق.

ومن ملامح منهجه كذلك ربط القضايا العقيدية بأثرها في تصور الإنسان وسلوكه؛ فالإيمان، في معالجته، ليس قضية نظرية معزولة عن الحياة، وإنما يرتبط بطريقة النظر إلى الوجود، وفهم علاقة الإنسان بربه، وتحديد مسؤوليته عن أعماله. ويمكن الاستفادة من هذا المنظور في قراءة التوجيهات الأخلاقية والتشريعية في سورة النحل ضمن سياقها الإيماني، بدل التعامل معها بوصفها أحكاماً متفرقة لا صلة لها بما سبقها من تقرير العقيدة والاستدلال عليها. ومع ذلك، ينبغي التمييز بين ما يدل عليه النص القرآني، وما يضيفه المفسر من تحليل اجتماعي أو حركي أو تربوي؛ إذ تختلف درجة الإسناد في كل مستوى، ولا يصح أن تُنسب جميع الاستنتاجات إلى النص على درجة واحدة.

كما يعتني شهيد القرآن بالصورة التعبيرية للقرآن، وبالأثر الذي يحدثه ترتيب المشاهد والأمثال والمقابلات في توضيح المعاني وتقريبها. وتتيح هذه العناية للباحث أن يتوقف عند الأمثال الواردة في سورة النحل، وأن يفحص وظائفها في سياقاتها، وما إذا كانت تشرح قضية سابقة، أو تقيم دليلاً جديداً، أو تقيم مقابلة بين حالين، أو تسهم في وصل مقطع بآخر. وكذلك يمكن دراسة الخطاب المتعلق بإبراهيم عليه السلام من حيث موقعه في سياق السورة وعلاقته بقضايا التوحيد والشكر. لكن تعيين هذه الوظائف لا يُستمد من المنهج العام وحده، بل يُبنى على تحليل المواضع القرآنية ذاتها.

وتظهر أهمية هذا المنهج أيضاً في التنبيه إلى أن وحدة السورة لا تعني خلوها من التنوع الموضوعي؛ فقد تشتمل السورة على قضايا عقدية وتشريعية وأخلاقية وأمثال ومشاهد من أحوال الأمم، مع إمكان انتظامها في بناء مترابط. غير أن إثبات الوحدة لا يتحقق بمجرد افتراض مقصد واحد يجمع كل هذه القضايا، ولا بمجرد العثور على ألفاظ أو موضوعات متكررة، بل يتطلب الكشف عن طبيعة العلاقات بينها، وتحديد ما إذا كانت علاقة استدلال أو تعليل أو تفریع أو مقابلة أو انتقال بين أغراض متكاملة. وهذه المسألة هي التي تجعل دراسة السياق والترابط الموضوعي ضرورية قبل تقرير المقصد الجامع.

وعند تطبيق هذه الملاحظات على سورة النحل، ينبغي عدم تحويل تحليل شهيد القرآن إلى نتيجة مسبقة للدراسة؛ فإذا أبرز

التفسير علاقة بين عرض النعم وتقرير التوحيد، عوملت هذه العلاقة بوصفها فرضية تفسيرية تُستلخص في ضوء الآيات والمقاطع ذات الصلة. وإذا رأى في عنصر من عناصر السورة وظيفة تربوية أو اجتماعية، نُظر في مدى دلالة النص عليها، وفي كونها معنى مباشرًا أو استنباطًا محتملاً. وإذا أشار إلى وحدة السورة، وجب بيان الأدلة التي تسند هذه الوحدة، لا الاكتفاء بتبني الحكم الإجمالي.

وعليه، تتمثل الإفادة الأساسية من منهج شهيد القرآن في تنبيه الباحث إلى ضرورة الانتقال من تفسير الموضوعات منفردة إلى دراسة وظائفها وعلاقاتها، مع المحافظة على المسافة النقدية بين تصور المفسر ونتائج البحث. وتظل قيمة في ظلال القرآن في هذه الدراسة مرتبطة بما يقدمه من تحليلات قابلة للفحص والمقارنة، لا بكونه مرجعًا يُسلّم بجميع أحكامه أو تُستمد منه المقاصد النهائية مباشرة.

المحور الثالث: ضوابط الإفادة من تفسير «في ظلال القرآن» في التحليل الموضوعي والمقاصدي

تتطلب الإفادة العلمية من تفسير «في ظلال القرآن» وضع ضوابط تمنع الخلط بين الاستفادة من التحليل التفسيري وبين تبني نتائجه دون فحص، وتضمن أن يظل استقراء المقاصد مبنياً على مجموع الأدلة لا على تصور مفسر واحد. ويزداد الاحتياج إلى هذه الضوابط لأن الدراسة الحالية لا تتخذ تفسير سيد قطب موضوعاً مستقلاً، ولا تقيد نفسها بمنهجه، وإنما تستعين به ضمن مجموعة من المصادر في دراسة مقاصد سورة النحل في ضوء السياق والترابط الموضوعي.

أولاً: التمييز بين النص القرآني وتحليل المفسر.

ينبغي الفصل بوضوح بين الآية التي يستشهد بها المفسر، والمعنى الذي يفسرها به، والعلاقة التي يقترحها بينها وبين غيرها من الآيات، والاستنتاج الذي يبنيه على ذلك؛ فالآية نص قرآني، وأما شرح المفسر وعلاقاته المستنبطة فاجتهاد تفسيري متفاوت في درجة دلالته. ومن ثم، لا يجوز نقل عبارة تحليلية من «في ظلال القرآن» ثم عرضها كما لو كانت دلالة نصية مباشرة، بل يجب بيان أنها قراءة المفسر، ثم فحص مدى استنادها إلى نظم الآيات وسياقها.

ثانيًا: مراعاة السياق الداخلي للسورة.

لا تُقبل علاقة موضوعية مقترحة لمجرد إمكان تصورهما من الناحية العامة، بل يجب ترجيحها في ضوء سياق الآيات والمقطع؛ فإذا رُبطت آيات النعم بقضية التوحيد، وجب بيان وجه الانتقال من ذكر النعمة إلى الاستدلال بالخالق، وما إذا كان النص نفسه يصرح بهذا الربط أو تدل عليه قرائنه. وإذا رُبطت التوجيهات الأخلاقية بما سبقها من قضايا عقدية، وجب توضيح طبيعة العلاقة، وعدم الاكتفاء بالقول إن الأخلاق ثمرة الإيمان دون تحليل موضعها ووظيفتها في السياق.

ثالثًا: المقارنة بين المصادر التفسيرية.

يُرجع إلى التفاسير الأخرى عند الحاجة إلى تحرير معنى لغوي، أو توثيق قول مأثور، أو فحص دلالة عقدية أو فقهية، أو ترجيح وجه من وجوه المناسبة. ولا يُشترط نقل أقوال جميع المفسرين في كل مسألة؛ وإنما تُستحضر الأقوال ذات الصلة بالمشكلة محل البحث؛ فإذا انفرد سيد قطب بربط موضوعين على وجه مخصوص، وجب التحقق من إمكان هذا الربط في النص، والنظر في مدى اتفاقه مع المعنى الذي قرره المفسرون الآخرون، ثم بيان سبب قبوله أو تقييده أو عدم اعتماده.

رابعًا: التمييز بين جمع المادة التفسيرية وسلامتها الفنية وموثوقيتها وقوتها الاستدلالية.

فوجود القول في تفسير معتبر يثبت أن المفسر قال به، لكنه لا يثبت وحده صحة كل ما يتضمنه من استنباط. كما أن سلامة

العبارة من الناحية الفنية، أو اتساقها مع تصور عام للسورة، لا يغنيان عن فحص الدليل. ولهذا ينبغي تقويم كل استنتاج من أربعة أوجه: صحة نقله عن المصدر، وسلامة فهمه في سياقه، ومدى اتساقه مع دلالة النص، وقوته في إثبات العلاقة أو النتيجة التي يراد تقريرها.

خامساً: عدم تحويل الملاحظات المقاصدية الأولية إلى نتائج نهائية.

في مرحلة التحليل التفسيري، تُعرض الدلالات المستفادة من تفسير «في ظلال القرآن» — وغيره من مصادر التفسير المعتمدة — بوصفها مؤشرات أو دلالات مرشحة، لا مقاصد مقررة. فإذا لاحظ الباحث أن سيد قطب يربط عرض النعم بالشكر والتوحيد، أثبت ذلك ضمن المادة التحليلية منسوبة إليه، مع التمييز بين ما يقرره صراحةً وما يُستفاد من منهجه، ثم يوازن مدى امتداد هذه العلاقة في السورة، ومدى استقلالها أو تبعيتها، وقدرتها على تفسير موضوعات أخرى. ولا يُحكم بأن هذه العلاقة تمثل المقصد العام أو الجامع إلا بعد استكمال إجراءات الاستقراء والتحكيم والترجيح وفق المعايير المعتمدة في الدراسة.

سادساً: عدم اختزال الدراسة في تصور سيد قطب.

لا يجوز أن تصبح نتائج البحث صياغة لأحكام «في ظلال القرآن»، لأن ذلك يحوّل الدراسة من بحث في مقاصد السورة إلى عرض لمنهج مفسر بعينه، وهو ما لا يدل عليه عنوانها.

وتتحقق استقلالية البحث بأن تكون الآيات وسياقاتها هي أساس الاستدلال، وأن تُستخدم أقوال المفسرين أدواتٍ للفهم والمقارنة، وأن يُصرح بمواضع الموافقة والمخالفة عند الحاجة، مع تعليل الترجيح بالدليل.

سابعًا: توثيق النقول والإحالات توثيقًا دقيقًا.

عند نقل عبارة من «في ظلال القرآن» حرفيًا، توضع بين علامتي تنصيص، ويُحال إلى الجزء والصفحة وفق الطبعة المعتمدة. أما عند تلخيص فكرة المفسر أو إعادة صياغتها، فينبغي أن تظل الإحالة واضحة، وألا توضع الصياغة الجديدة بين علامتي اقتباس. كما يجب التحقق من أن العبارة المنقولة تعود إلى تفسير سيد قطب نفسه، لا إلى نص قرآني أورده أو قول لمفسر آخر نقله في سياق تفسيره.

ثامنًا: ضبط الاستنباطات التربوية والاجتماعية.

قد يربط سيد قطب بين بعض المعاني القرآنية وآثارها في بناء الإنسان أو المجتمع، ويمكن الإفادة من ذلك عند دراسة الهدايات المستفادة من السورة. لكن ينبغي التمييز بين الأثر الذي يدل عليه النص أو يستلزمه، والتطبيق الذي يقترحه المفسر، والادعاء الذي يحتاج إلى دليل تجريبي مستقل؛ فلا يصح أن تُعرض ملاحظة تربوية أو اجتماعية مستنبطة من الآيات على أنها حقيقة علمية تجريبية، ما لم تسندها دراسة مستقلة مناسبة.

افتتاح السورة ودلالاته في بناء موضوعاتها

المحور الأول: دلالة قوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ في سياق الألوهية والبعث

افتتحت سورة النحل بقوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١]. ويجمع هذا الافتتاح بين الإخبار بتحقيق أمر الله، والنهي عن استعجاله، وتنزيه الله عما يشرك به المشركون. وتكشف هذه العناصر، في سياق اجتماعها، عن افتتاح يتجاوز الإخبار بقرب أمر مستقبلي إلى وضع القارئ أمام حقيقة سلطان الله ونفاذ أمره وبطلان الشرك به.

وقد اختلف المفسرون في تعيين المراد بـ﴿أَمْرُ اللَّهِ﴾؛ فذكر الطبري قول من حملة على فرائض الله وأحكامه، وقول من حملة على الوعيد بالعذاب وقرب وقوعه على المكذبين، ورجح القول الثاني بالنظر إلى سياق الآية، ولا سيما تعقيبها بقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ إذ رأى في هذا التعقيب قرينة على أن الخطاب يتضمن تهديدًا للمشركين (١). ويؤيد هذا الاتجاه ما أورده القرطبي من تفسير الأمر بقيام الساعة، مع ذكره أقوالاً أخرى في المراد به. (2)

ويقتضي هذا الاختلاف التمييز بين أصل الدلالة والوجوه المحتملة لتعيين متعلقها؛ فأصل الآية هو تقرير نفاذ أمر الله وتحقيق ما قضى به، مع النهي عن استعجال وقوعه؛ أما تعيين

ذلك الأمر بالساعة أو العذاب أو غيرهما، فيحتاج إلى النظر في السياق وقرائن التفسير. ولا يصح تسوية هذه الأقوال في درجة الترجيح لمجرد ورودها، كما لا يصح إهمالها عند دراسة الدلالة العامة للافتتاح.

ويبرز في التعبير القرآني استعمال الفعل الماضي في قوله: ﴿أَتَى﴾، مع أن متعلق الخبر يُفهم في ضوء التفسير على أنه أمر منتظر الوقوع. وقد فسّر المفسرون ذلك بتحقيق الوقوع وقربه، لا بضرورة انقضاء الحدث في الزمن الذي يقرأ فيه المخاطب الآية؛ فالماضي هنا يؤدي وظيفة تقريرية، إذ يعرض الأمر الموعود في صورة المحقق الذي لا يتخلف، مع بقاء وقوعه الفعلي مرتبطاً بما قضاه الله وقدره. وقد أبرز شهيد القرآن هذه الدلالة، فربط الصيغة الجازمة بتحقيق الأمر في موعده المقدر، ويبيّن أن استعجال المخاطبين لا يقدم وقوعه ولا يؤخره. (3)

وتترتب على ذلك دلالة عقدية مهمة؛ إذ يفصل الافتتاح بين يقين وقوع الأمر الإلهي وبين استعجال البشر له؛ فعدم وقوع الموعود في اللحظة التي يريدها المخاطب لا يدل على انتفاء الوعد أو ضعف القدرة على إنفاذه، بل إن تقدير زمن الوقوع داخل في سلطان الله. ومن ثم، فإن النهي في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ ليس مجرد توجيه إلى الانتظار، وإنما يحمل، في سياق الوعيد، رداً على موقف يتعامل مع الخبر الإلهي بمنطق الاستبعاد أو التحدي.

ويؤكد التعقيب بقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ اتصال الافتتاح بقضية التوحيد؛ فبعد تقرير تحقق أمر الله، يأتي تنزيهه عن الشركاء الذين ينسبهم إليه المشركون. وهذا التتابع يضع الشرك في مواجهة حقيقة السلطان الإلهي: فالله الذي ينفذ أمره ويقع ما قضاه هو المستحق للتنزيه والتعظيم، ولا يستقيم الإقرار بسلطانه مع تسوية غيره به في العبادة أو التدبير. ولا يلزم من هذا أن الآية تفصل جميع أوجه الحجة على التوحيد، وإنما تؤسس منذ البداية إطاراً عقدياً يتصل بما سيأتي من عرض دلائل الخلق والإنعام والوحي.

ويأتي قوله تعالى في الآية الثانية: ﴿يُرْسِلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢] ليصل تقرير أمر الله بإنزال الوحي، ويصرح بمضمون الرسالة في توحيد الله وتقواه. وتكشف المجاورة بين الآيتين عن انتقال من تقرير نفاذ الأمر الإلهي إلى بيان وسيلة تبليغ أمر الله للعباد، وهي الوحي الذي يحمل الإنذار والدعوة إلى إفراده بالعبادة. وبذلك لا يبقى الافتتاح محصوراً في الوعيد، بل يتسع سياقه المباشر ليشمل الرسالة والتوحيد والتقوى.

ثم تأتي الآية الثالثة بقوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٣]، فتنقل من إنزال الوحي إلى الاستدلال بالخلق، مع تكرار تنزيه الله عن الشرك. ويكشف هذا التتابع عن صلة بين الوحي والدليل الكوني: فالرسالة تدعو إلى التوحيد، والخلق يقدم مجاًلاً للنظر في قدرة الخالق وتدبيره،

بينما يعود التنزيه ليؤكد أن هذه الدلائل لا تنسجم مع إشراك غير الله به.

ويلاحظ هنا أن الآيات الثلاث الأولى تتعاقب فيها ثلاثة عناصر مترابطة: تقرير أمر الله، وإنزال الوحي الداعي إلى التوحيد، والاستدلال بالخلق. وهذه الملاحظة لا تعني أن كل عنصر منها يؤدي وظيفة واحدة لا تتجاوزها، ولا تحسم أن هذه العناصر تمثل جميع الأغراض الرئيسة للسورة؛ لكنها توفر قرينة أولية على أن افتتاح السورة يهيئ القارئ لموضوعات تتصل بسلطان الله ورسالته وأدلة وحدانيته.

أما صلة الافتتاح بالبعث، فتظهر في تفسير الأمر الإلهي بالساعة أو العذاب، وفي استحضار مآل المكذبين عند النظر في سياق السورة. غير أن الآية الأولى لا تذكر لفظ البعث صراحة، ولذلك ينبغي التمييز بين دلالتها المباشرة على تحقق الأمر الإلهي، وبين تفسير هذا الأمر بالساعة أو العذاب، وبين ما يتكشف لاحقاً من تقرير البعث والجزاء. وهذا التمييز ضروري حتى لا تُحمّل الآية وحدها جميع القضايا التي ستتناولها السورة.

وبناءً على ذلك، يمكن رصد ثلاث دلالات مرشحة في هذا الافتتاح: تقرير حتمية نفاذ أمر الله، ومواجهة الشرك بتنزيه الله عما ينسب إليه المشركون، وتهيئة السياق للانتقال إلى الوحي وأدلة الخلق والتوحيد. وتظل هذه الدلالات مؤشرات أولية تحتاج إلى ترجيح في ضوء مجموع مقاطع السورة، ولا يصح تحويلها في هذه المرحلة إلى أحكام نهائية على مقاصدها العامة.

المحور الثاني: دلالة افتتاح السورة في توجيه فهم موضوعاتها ومقاطعها اللاحقة

لا تتحدد قيمة افتتاح السورة بمجرد موقعه في أولها، بل تتصل كذلك بما يهيئ له من أسئلة عقدية ودلالية، وبالطريقة التي تتفاعل بها موضوعات السورة اللاحقة مع هذه الأسئلة. ومن ثم، فإن دراسة افتتاح سورة النحل تقتضي الانتقال من تفسير ألفاظ الآية الأولى إلى فحص صلتها بالمقاطع التالية، مع التمييز بين الدلالة التي يسندها النص مباشرة، والعلاقة التي تظهر من ترتيب الموضوعات، والنتيجة المقاصدية التي لا تثبت إلا بعد استقراء أوسع.

ويكشف النظر في الآيات الأولى عن أن افتتاح السورة لا يأتي معزولاً عن موضوعاتها اللاحقة؛ فبعد قوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ يأتي الحديث عن إنزال الملائكة بالوحي، ثم خلق السماوات والأرض، وخلق الإنسان، وما سُخِّرَ له من المخلوقات، وما أفاض الله عليه من النعم. وهذا التتابع يتيح ملاحظة انتقال من تقرير أمر الله وسلطانه إلى عرض مظاهر قدرته ورحمته وتديره، ثم إلى بيان ما يقتضيه ذلك من توحيده وشكره.

ويتضح هذا الانتقال في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٣]، ثم قوله: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ [النحل: ٤]؛ فبعد تقرير الخلق والتنزيه، يلفت النص النظر إلى خلق الإنسان، ثم

يكشف عن مفارقة بين أصل نشأته وضعفه وبين ما قد يصدر عنه من خصومة ومجادلة. وتسمح هذه المجاورة برصد انتقال من الاستدلال بالخلق إلى عرض موقف الإنسان من خالقه، وإن كان تعيين الوظيفة الكلية لهذا الانتقال يحتاج إلى موازنة مع بقية السياقات.

ويتواصل عرض دلائل القدرة والإنعام في الآيات التالية، من خلق الأنعام وتسخيرها إلى إنزال المطر وإنبات الزرع والثمر، وتسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم. ويظهر من هذا التابع أن عرض النعم لا يقتصر على وصف مظاهر الكون، بل يرد ضمن سياق قرآني يربطها بالخالق والمدبر، ويواجه ما يقابلها من الشرك والجحود. ويؤيد ذلك تكرر التعقيب بتنزيه الله عن الشرك في مواضع متعددة، كما في الآية الثالثة، ثم قوله تعالى: ﴿أَقَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]؛ فالسؤال في الآية الأخيرة ينقل النظر من مجرد مشاهدة المخلوقات إلى المفاضلة الاستدلالية بين الخالق وما لا يخلق، وهو ما يبرز الوظيفة التوحيدية للأدلة الكونية في سياق السورة. ويترتب على ذلك أن الافتتاح يوفر إطاراً لقراءة هذه الموضوعات، لكنه لا يغني عن تحليل كل مقطع في سياقه الخاص؛ فليس كل ذكر للنعمة دليلاً بالدرجة نفسها، ولا تؤدي جميع الشواهد الكونية وظيفة متطابقة؛ إذ قد يكون بعضها أقرب إلى الاستدلال على القدرة، وبعضها إلى تذكير الإنسان بالإنعام، وبعضها إلى إظهار التناقض بين الإقرار بالنعمة وجحود

المنعم. ولهذا ينبغي أن يُبنى الربط بين الافتتاح وهذه الموضوعات على تحليل دلالة كل سياق، لا على مجرد اشتراك الآيات في الحديث عن الله أو نعمه.

وتظهر أهمية الافتتاح أيضًا عند الانتقال من دلائل الخلق والإنعام إلى الوحي والنبوة وموقف المكذبين؛ فقد صرحت الآية الثانية بأن وظيفة الوحي الإنذار بتوحيد الله وتقواه، ثم تناولت السورة مواقف المعاندين من الرسالة وما يثيرونه من شبهات. ومن الممكن، في ضوء هذا التتابع، رصد علاقة بين تقرير سلطان الله في الافتتاح وبين وجوب تلقي خبره ووحيه بالتصديق، إلا أن إثبات طبيعة هذه العلاقة ومدى امتدادها في البناء الكلي يتطلب النظر في المقاطع التي تعرض الوحي ومواقف المخاطبين منه.

ويُلاحظ كذلك أن السورة لا تقف عند تقرير القضايا العقديّة، بل تتناول العدل والإحسان والوفاء بالعهد، وتبين أحكامًا تتصل بالحلال والحرام، وتوجه إلى الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والصبر. ويثير هذا الانتقال سؤالًا تحليليًا عن الصلة بين أصول الاعتقاد والتوجيهات العملية: هل ترد هذه التوجيهات بوصفها امتدادًا لما تقرره السورة من حق الله على عباده، أم أن لكل منها سياقًا ووظيفة خاصة تتكامل مع غيرها؟ لا يكفي الافتتاح وحده للإجابة عن هذا السؤال، لكنه يضعه ضمن الأسئلة التي ينبغي أن يختبرها تحليل الترابط الموضوعي.

ومن جهة أخرى، لا ينبغي أن يؤدي التركيز على الافتتاح إلى إغفال المقاطع التي تعرض أمثالا أو قصصا أو مواقف تاريخية؛ فهذه العناصر قد تؤدي وظائف استدلالية أو توضيحية لا تفهم على نحو دقيق إلا في سياقاتها القريبة، ثم تُدرس صلتها بالبناء الأوسع للسورة. ولذلك لا يصح افتراض أن كل مثل أو قصة يعود مباشرة إلى معنى الآية الأولى، وإنما تُبحث العلاقات بحسب القرائن النصية والموضوعية التي تسندها. وتتطلب القراءة المنهجية للافتتاح التمييز بين ثلاثة مستويات من الاستدلال:

١. **الدلالة المباشرة:** وهي ما يقرره نص الافتتاح في شأن تحقق أمر الله، والنهي عن استعجاله، وتنزيه الله عن الشرك.
٢. **العلاقات السياقية والموضوعية:** وهي الروابط التي تظهر من مجاورة الافتتاح لآيات الوحي والخلق، ثم من اتصاله بموضوعات السورة اللاحقة.
٣. **المؤشرات المقاصدية:** وهي المعاني التي يُحتمل أن تكشف عنها هذه العلاقات عند جمع الأدلة، على أن تبقى مرشحة للترجيح، ولا تُعتمد مقاصد عامة مقررة قبل استكمال الاستقراء.

ويحول هذا التمييز دون الوقوع في خطأين متقابلين: أولهما عزل الآية الأولى عن بقية السورة، بحيث تُفسر بوصفها وعيدا مستقلا لا أثر له في قراءة الموضوعات اللاحقة؛ وثانيهما تحميلها مقصدا شاملا قبل بيان الشواهد التي تسند هذا

التعميم. والمنهج الأضبط هو إثبات دلالة الافتتاح في سياقها المباشر، ثم تتبع ما يتصل بها في سائر السورة، ثم تقويم درجة هذه الصلات وقدرتها على تفسير انتظام الموضوعات. وعليه، فإن افتتاح سورة النحل يقدم مدخلاً مهماً لفهم موضوعاتها، من خلال تقرير نفاذ أمر الله وتنزيهه عن الشرك، ثم اتصال ذلك بالوحي وأدلة الخلق والإنعام. وتكشف هذه الصلات عن مؤشرات أولية تتعلق بالتوحيد، وسلطان الله، وموقف الإنسان من الوحي والنعم. غير أن مدى قدرة هذه المؤشرات على تفسير وحدة البناء الموضوعي للسورة، وعلاقتها بالمقاصد العامة المحتملة، يظل أمرًا مؤجلًا إلى الدراسة المقارنة للمقاطع وتحليل ترابطها، ثم ترجيح النتائج في الفصل المقاصدي.

الهوامش

- (1) الطبري، محمد بن جرير. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تفسير سورة النحل، الآية ١.
- (2) القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري. الجامع لأحكام القرآن، تفسير سورة النحل، الآية ١. (تختلف أرقام الأجزاء والصفحات باختلاف الطبعات).
- (3) قطب، سيد؛ في ظلال القرآن، تفسير سورة النحل، الآية ١.

أدلة التوحيد ومواجهة الشرك

المحور الأول: الاستدلال بخلق السماوات والأرض والإنسان على قدرة الله ووحدانيته

يأتي الاستدلال بالخلق في سورة النحل ضمن سياق يربط بين تقرير التوحيد وإقامة الحجة عليه من خلال النظر في آيات الكون والإنسان؛ فبعد افتتاح السورة بذكر أمر الله وتنزيهه عما يشرك به المشركون، قال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٣]. وبهذا ينتقل الخطاب من تقرير سلطان الله إلى الاستدلال بآثاره المشهودة، فيجعل الخلق مدخلاً للنظر في استحقاق الخالق وحده للعبادة، ويضع دعوى الشرك في مواجهة حقيقة الإيجاد والتدبير.

وتؤدي عبارة ﴿بِالْحَقِّ﴾ دوراً مهماً في توجيه دلالة الآية؛ فالخلق ليس فعلاً عبثياً ولا وجوداً منفصلاً عن الحكمة، وإنما هو خلق قائم على الحق والحكمة، كما يقتضي التعبير النظر في غاياته ودلالاته. وقد أشار المفسرون إلى أن خلق السماوات والأرض بالحق يتضمن تنزيه فعل الله عن العبث، وإثبات الحكمة في خلقه وتدبيره (١). ويُستفاد من ذلك أن الاستدلال القرآني لا يقف عند مجرد وجود العالم، بل يوجّه النظر إلى طبيعة هذا الوجود ودلالته على خالقه.

ويعقب تقرير الخلق بقوله تعالى: ﴿تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، فيربط بين الدليل الكوني والنتيجة العقديّة التي يوجّه إليها السياق؛ فذكر خلق السماوات والأرض لا يأتي منفصلاً عن مواجهة

الشرك، بل يعقبه تنزيه الله عما ينسبه إليه المشركون من الشركاء. ويُفهم من هذا النظم أن الاستدلال بالخلق يؤدي وظيفة تتجاوز إثبات القدرة إلى تقويض التصورات التي تسوّي بين الخالق وغيره؛ إذ لا يستقيم جعل المخلوق شريكاً للخالق في استحقاق العبادة، مع التفاوت الجوهرى بينهما في حقيقة الإيجاد والقدرة.

ثم يخصّ الخطاب الإنسان بالذكر في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ [النحل: ٤]. وينقل هذا الانتقال الاستدلال من المجال الكوني الواسع إلى الإنسان نفسه؛ فهو الذي يشهد أصل نشأته، ويملك القدرة على النظر والاستدلال، لكنه قد يتحول إلى خصيم يجادل في الحق الذي تدل عليه آيات الخلق. وتكشف المقابلة بين الأصل الضعيف الذي بدأ منه الإنسان وما قد ينتهي إليه من خصومة عن مفارقة تستدعي مراجعة موقفه من خالقه: فامتلاك القدرة على الجدل لا يقتضي صحة ما ينتهي إليه، كما أن القدرة على التعبير والحجاج لا تعفي الإنسان من النظر في الأدلة التي تحيط به. ولا تدل الآية على أن كل جدل يصدر عن الإنسان مذموم؛ فالسياق هو الذي يحدد جهة الخصومة المقصودة. وإنما تكمن الدلالة في عرض قابلية الإنسان للمجادلة عقب ذكر خلقه، بما يلفت النظر إلى التناقض الذي قد يقع فيه حين يعرف أصل نشأته ثم ينزع في حق خالقه أو يجحد دلائل وحدانيته. ويؤيد هذا الفهم ما يورده السعدي في تفسير الآية من التنبيه إلى انتقال

الإنسان من أصل ضعيف إلى حال يتمكن فيها من البيان والخصومة، وما ينطوي عليه ذلك من وجوه العبرة بخلق الإنسان وأحواله.(2)

ويتضح من الجمع بين الآيتين الثالثة والرابعة أن السورة تعرض مستويين متكاملين من الاستدلال: أولهما الاستدلال بخلق العالم على قدرة الله وحكمته، وثانيهما الاستدلال بخلق الإنسان على أصل وجوده وما يترتب عليه من افتقاره إلى خالقه. ويختلف المجالان من حيث موضوع النظر، لكنهما يلتقيان في ردّ الإنسان إلى حقيقة العبودية؛ فالعالم بما فيه من نظام الخلق والتدبير، والإنسان بما يشهده من أصل نشأته، كلاهما مجال للتفكر في قدرة الله.

ويستمر السياق في عرض آيات الخلق والإنعام، فيقول تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: ٥]، ثم يذكر ما فيها من جمال ومنافع، وما ييسره الله للإنسان من حمل الأثقال والانتقال في الأسفار [النحل: ٦-٧]. وبذلك يتصل الاستدلال بالخلق بذكر الانتفاع بالمخلوقات؛ فالآيات لا تعرض وجود الأنعام فحسب، بل تبرز ما أودعه الله فيها من خصائص وما تتيحه للإنسان من منافع. وهذا الانتقال يوسّع مجال النظر من أصل الإيجاد إلى مظاهر التدبير والإنعام، ويهيئ لفهم العلاقة بين معرفة الخالق والإقرار بنعمه.

ومن الناحية الاستدلالية، ينبغي التمييز بين إثبات أن الله خالق السماوات والأرض والإنسان، وبين ما يتفرع عن ذلك من إثبات

استحقاقه وحده للعبادة؛ فالآيات تعرض الخلق بوصفه دليلاً على القدرة، ثم تصل هذا الدليل بتنزيه الله عن الشرك. أما الانتقال إلى تقرير الوحدانية في العبادة، فيفهم من مجموع السياق القرآني الذي يجعل الخلق والإنعام منطلقين للدعوة إلى إفراد الله بالعبادة، لا من مجرد دعوى أن كل من أقر بوجود الخالق يلزم أن يكون قد حقق التوحيد بالفعل. إذ قد يقر المرء بأن الله خالق، ثم يناقض مقتضى هذا الإقرار بصرف شيء من العبادة لغيره.

وهنا تظهر أهمية التمييز بين المعرفة النظرية بمصدر الخلق والتحقق العملي بمقتضياتها؛ فالحجة القرآنية لا تستهدف تحصيل معلومة مجردة عن نشأة الكون والإنسان، وإنما تدعو إلى تصحيح موقف الإنسان من خالقه. ولذلك يتكرر في السورة الانتقال من ذكر فعل الله إلى بيان ما ينبغي أن يترتب عليه من الاعتراف بفضله وإفراده بالعبادة، مع كشف صور التناقض بين دلائل القدرة ومواقف المشركين.

ويبرز في منهج شهيد القرآن في تفسير هذه الآيات الاهتمام بالصلة بين مشاهد الكون والحقيقة الإيمانية التي تدل عليها؛ إذ لا تُعرض مظاهر الخلق عنده باعتبارها مشاهد منفصلة عن الاعتقاد، بل باعتبارها آيات تثير النظر في قدرة الخالق وتديره. وتفيد هذه القراءة في إبراز وحدة الدلالة بين المجال الكوني والموقف الإيماني، على أن تظل الملاحظات المستفادة من تفسيره خاضعة للموازنة مع دلالة النص وسياقه وأقوال

المفسرين، وألا تتحول القراءة الأدبية للمشهد إلى دليل مستقل على مقصد السورة. (3)

وعليه، يكشف هذا المقطع عن مؤشرين جديرين بالاستقراء اللاحق: أولهما اتصال الاستدلال بالخلق بتنزيه الله عن الشرك، وثانيهما انتقال الخطاب من الخلق العام إلى خلق الإنسان وما يثيره من مساءلة موقفه من خالقه. وهذان المؤشران لا يقرران وحدهما مقصدًا عامًا للسورة، لكنهما يقدمان مادة تفسيرية يمكن ترجيحها عند دراسة اتصال دلائل الخلق بموضوعات النعم والشكر والوحي والجزاء.



المحور الثاني: دلالات المخلوقات الكونية في تقرير القدرة والتدبير

لا يقتصر الاستدلال في سورة النحل على خلق السماوات والأرض والإنسان، بل يمتد إلى مشاهد الكون وما أودع الله فيها من خصائص، وإلى ما يتصل بها من منافع الإنسان وحاجاته. ويظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢]. وتجمع الآية بين ذكر المخلوقات الكونية، وبيان تسخيرها، والتصريح بأن هذا التسخير واقع بأمر الله، ثم توجيه النظر إلى دلالاته بوصفه آية تستدعي التعقل.

ويكشف لفظ ﴿سَخَّرَ﴾ عن أن الخطاب لا يكتفي بالإخبار عن وجود هذه المخلوقات، وإنما يلفت النظر إلى ما تتيحه من منافع وما يجري عليها من نظام؛ فتعاقب الليل والنهار، وجريان الشمس والقمر، وانتظام النجوم في وظائفها التي يعرفها الناس، كلها مظاهر يوجّه القرآن النظر من خلالها إلى التدبير الإلهي. ولا تتوقف الدلالة على الإحساس بجمال الكون أو الانتفاع به؛ إذ يربط النص بين التسخير وبين الأمر الإلهي، فينقل النظر من المشهد المحسوس إلى دلالاته على قدرة المدبر وسلطانه.

ويؤكد ختام الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أن الانتفاع بالدليل لا يتحقق بمجرد مشاهدة الظاهرة، بل يحتاج إلى نظر يدرك وجه دلالتها؛ فالموجودات الكونية لا تُعرض في الخطاب القرآني باعتبارها معلومات

محايدة، وإنما بوصفها آيات يُستدل بها على خالقها ومدبرها. ومع ذلك، لا ينبغي تحويل هذا المعنى إلى دعوى أن كل تفصيل كوني يثبت بمفرده جميع قضايا الاعتقاد؛ فدلالة كل آية تُفهم في حدود ما يسنده النص والسياق، ثم تتكامل مع غيرها في بناء الحجة القرآنية.

ويأتي قوله تعالى: ﴿وَمَا ذَرَأَّا لَكُم فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٣] ليوسع مجال الاستدلال من الأجرام العلوية إلى تنوع المخلوقات الأرضية. ويظهر في الآيتين اختلاف في ختام الدلالة: ففي الأولى آيات لقوم يعقلون، وفي الثانية آية لقوم يذكرون. ولا يلزم من هذا الاختلاف بناء مقابلة اصطلاحية حادة بين العقل والتذكر، لكنه يلفت النظر إلى تنوع وجوه الانتفاع بالآيات؛ فقد يدرك الإنسان وجه الدلالة بالنظر والاستدلال، وقد يستعيد بالتذكر حقيقة سبق أن عرفها ثم غفل عنها.

ويُستفاد من ذلك أن تنوع المخلوقات ليس مجرد وصف لتعدد الصور والألوان، بل هو مدخل للنظر في القدرة التي أوجدتها والتدبير الذي تنتظم في إطاره. كما أن اختلاف الألوان والخصائص يلفت إلى أن الاستدلال القرآني يستوعب المألوف الذي يحيط بالإنسان في حياته، ولا يقصر النظر على الظواهر البعيدة أو الاستثنائية؛ فالمشهد اليومي، حين يُقرأ في ضوء الخطاب القرآني، يمكن أن يصبح مجالاً للتذكر والاعتبار.

ثم ينتقل السياق إلى البحر في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤]. وتجمع هذه الآية بين بيان التسخير، وتعداد بعض وجوه الانتفاع بالبحر، والإشارة إلى طلب فضل الله، ثم ربط ذلك بالشكر. وهي بذلك تكشف عن صلة واضحة بين الاستدلال بالكون والتوجيه العملي؛ فالتأمل في المخلوقات لا ينتهي عند إدراك القدرة، بل يمتد إلى استحضار النعمة وما تقتضيه من اعتراف بالمنعم.

غير أن الشكر لا يرد في هذا الموضع بوصفه النتيجة الوحيدة الممكنة لكل استدلال كوني، بل يأتي ضمن السياق الذي يربط الانتفاع بنعم الله باستحقاقه الاعتراف والعبادة. وتكتسب هذه الصلة أهميتها من أن السورة لا تفصل بين تقرير القدرة وعرض النعمة؛ فالقدرة تظهر في الخلق والتسخير، والنعمة تظهر في إمكان الانتفاع، والشكر يمثل استجابة عملية ينبغي أن تتناسب مع ما يقرره الخطاب من فضل الله.

ويستكمل السياق هذا البناء بذكر الجبال والأنهار والسبل والعلامات والنجوم، قال تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٥]، ثم قال: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]. وتبرز الآيتان وجهًا آخر من وجوه التدبير، يتمثل في تهيئة الأرض وما فيها من معالم ووسائل للاهتداء. ويجمع السياق هنا بين مظاهر تتصل

باستقرار الحياة وإمكان الحركة فيها، وبين ما يحتاج إليه الإنسان من علامات تساعد على معرفة الطريق. ويكشف هذا التابع عن أن الحديث عن المخلوقات الكونية يتدرج من التسخير العام إلى منافع مخصوصة، ثم إلى ما يهيئ للإنسان الانتفاع بالأرض والاهتداء في مسالكها. وليس المقصود أن كل آية في هذا السياق تحمل دليلاً مستقلاً على جميع صفات الله، بل إن الآيات تتكامل في عرض مظاهر القدرة والتدبير والإنعام، بحيث يضيف كل مشهد وجهاً من وجوه الدلالة إلى ما سبقه.

وتتأكد الوظيفة الاستدلالية لهذه المشاهد في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]؛ فالاستفهام لا يضيف مجرد معلومة جديدة، وإنما يستخلص نتيجة من الأدلة السابقة؛ إذ ينقل الخطاب من عرض مظاهر الخلق والتسخير إلى مساءلة المخاطب عن صحة التسوية بين الخالق وغيره. وبذلك تتضح الصلة بين المادة الوصفية والنتيجة العقديّة: فالمشاهد الكونية تُعرض أولاً، ثم يُوجّه النظر إلى دلالتها، ثم تأتي المساءلة التي تكشف عن التناقض في جعل من لا يخلق مماثلاً لمن يخلق.

وتنبغي ملاحظة أن الآية السابعة عشرة تمثل نقطة مهمة في انتظام هذا المقطع؛ لأنها تصوغ الاستدلال في صورة مقارنة صريحة بين الخالق ومن لا يخلق. ومع ذلك، فإن الحجة لا تنحصر في هذه الآية وحدها، بل تستند إلى مجموع ما سبقها

من شواهد، وإلى ما يتلوها من تذكير بنعم الله وعجز ما يُشرك به عن الخلق والتدبير. ولهذا يكون تفسير الاستفهام في ضوء سياقه أضبط من اقتطاعه وتحويله إلى قاعدة عامة دون مراعاة موضعه من السورة.

ويأتي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨] عقب هذا الاستدلال، فيكشف عن انتقال من تعداد نماذج من النعم إلى تقرير كثرتها وتعذر الإحاطة بها. ويظهر هنا تداخل وظيفتين: وظيفة الاستدلال على قدرة الله وتديبره من خلال المخلوقات، ووظيفة تذكير الإنسان بما يغمر حياته من النعم. وهذا التداخل مهم في قراءة السورة؛ لأن النعم لا تؤدي وظيفة اقتصادية أو نفعية فحسب، وإنما ترد كذلك ضمن خطاب يوجه الإنسان إلى معرفة المنعم ومراجعة موقفه من الشكر والجحود.

ومن ثم، فإن الاستدلال بالمخلوقات الكونية في سورة النحل يقوم على تفاعل ثلاثة مستويات: وجود المخلوقات وما تتصف به من خصائص، وتسخيرها بما يتيح للإنسان الانتفاع بها، ثم توجيه النظر إلى ما تكشف عنه من قدرة الله وتديبره. ويتصل بهذه المستويات توجيه الإنسان إلى التذكر والشكر، وهو ما يفتح مجالاً لدراسة العلاقة بين دلائل التوحيد وموضوع النعم لدينا في التالي. وتظل هذه العلاقة في هذه المرحلة مؤشراً موضوعياً يحتاج إلى مزيد من الفحص عند دراسة المقاطع مجتمعة.



المحور الثالث: موقف المشركين من التوحيد

وشبهاتهم في ضوء السياق التفسيري

لا تعرض سورة النحل أدلة التوحيد بمعزل عن موقف المخاطبين منها، بل تجمع بين إقامة الحجة والكشف عن صور من الرفض والمجادلة والجحود. وتظهر هذه المقابلة منذ افتتاح السورة، في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١]، ثم تتكرر في سياقات لاحقة تتناول موقف المشركين من الخلق والوحي والبعث والنعم. ويقتضي تحليل هذا الموقف التمييز بين الشبهة التي يطرحها المخالف، والجواب القرآني عنها، والخلل في طريقة الاستدلال الذي يكشف عنه السياق.

ومن أبرز صور هذا الخلل ما يظهر في الجمع بين الإقرار ببعض دلائل القدرة وبين الاستمرار في الشرك؛ فالخطاب يقرر أن الله خلق السماوات والأرض، ثم يذكر خلق الإنسان وتسخير المخلوقات، ويعقب ذلك بقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]. ويكشف هذا الاستفهام عن أن القضية ليست مجرد الاعتراف بوجود خالق، وإنما ما يقتضيه هذا الاعتراف من تمييز بين الخالق والمخلوق، وعدم التسوية بينهما في العبادة أو استحقاق التعظيم المطلق.

ويقوم الاستدلال في الآية على مقارنة لا تستقيم التسوية فيها؛ لأن الخلق وصف يختص به الخالق، بينما يعجز المعبود الباطل عن الإتيان بما يدل على الخلق والتدبير. ومن هنا يوجه

الاستفهام المخاطب إلى مراجعة موقفه على أساس ما يقر به أو يشاهده من حقائق الخلق؛ فالخطاب لا يكتفي بإدانة الشرك، بل يكشف عن التناقض الداخلي في موقف من يشهد دلائل القدرة ثم يجعل لغير الله نصيبًا من العبادة.

ويظهر هذا المعنى بصورة أخرى في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [النحل: ٢٠]، ثم قوله: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: ٢١]؛ فبعد عرض أدلة الخلق والتسخير، ينتقل الخطاب إلى وصف ما يُدعى من دون الله بما يكشف عن عجزه وافتقاره. والمقابلة بين الخالق والمخلوق هنا ليست مجرد تقابل لفظي، بل هي حجة تتصل بأصل الاستحقاق: من لا يخلق، بل هو مخلوق، لا يملك من خصائص الألوهية ما يبرر صرف العبادة إليه.

ولا يعني ذلك أن جميع المشركين كانوا يتبنون تصورًا واحدًا في شأن معبوداتهم، أو أن طبيعة الشرك وأسبابه كانت متطابقة في كل حال. وإنما يعالج النص أصلًا مشتركًا في الموقف الذي يواجهه، وهو دعاء غير الله واتخاذ معبودًا، ثم يرد عليه بإبراز الفرق بين الخالق والمخلوق. ومن الناحية المنهجية، ينبغي عدم اختزال جميع صور الشرك التاريخية في تفسير واحد، إلا بقدر ما تدل عليه الآيات والروايات التفسيرية المعتمدة.

ويتصل هذا الموقف بإنكار البعث والجزاء، وهو ما يلوح في مطلع السورة عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾ بالساعة أو

العذاب؛ فاستعجال الأمر أو استبعاده يمكن أن يعكس موقفًا من الوعيد الإلهي، لكن تحديد طبيعة هذا الموقف لا يصح أن يُبنى على الآية الأولى وحدها. ويزداد وضوح القضية في سياقات السورة التي تتناول بعث الموتى وموقف المكذبين، حيث يواجه القرآن الاستبعاد بإثبات قدرة الله، وربط الخلق الأول بإمكان الإعادة، وتقرير مسؤولية الإنسان عن أعماله.

ويكشف هذا الاتصال بين الشرك وإنكار البعث عن أن المواجهة القرآنية لا تجري على مستوى واحد؛ فثمة خلل في تصور حقيقة الألوهية، وخلل في تقدير القدرة الإلهية، وخلل في التعامل مع خبر الوحي وما يتضمنه من وعد ووعيد. ومع ذلك، لا ينبغي اعتبار هذه القضايا مترادفة أو دمجها في شبهة واحدة؛ فلكل منها سياقها وأدلتها، وإن أمكن أن تتفاعل في موقف المخاطبين.

ومن صور الموقف الذي تعالجه السورة كذلك الإعراض عن أدلة النعم أو جحودها؛ فبعد تعداد مظاهر الخلق والتسخير، يقرر القرآن أن نعم الله لا تُحصى [النحل: ١٨]، ثم يعيد توجيه النظر إلى علم الله بما يسر الناس وما يعلنون [النحل: ١٩]. ويُفهم من هذا السياق أن الانتفاع بالنعم لا يساوي بالضرورة الاعتراف بالمنعم، وأن المعرفة العملية بآثار الإنعام قد تجتمع مع الإعراض عن مقتضاها العقدي. ويصبح الجحود، بهذا الاعتبار، صورة من صور التناقض بين ما يحيط بالإنسان من دلائل وبين موقفه منها.

ويُلاحظ أن الخطاب القرآني يجمع في معالجة الشرك بين عرض الدليل، وكشف التناقض، وتوجيه السؤال إلى المخاطب؛ فعرض الخلق والتسخير يوفر مادة الاستدلال؛ والمقابلة بين الخالق وما لا يخلق تكشف الخلل في التسوية؛ والاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ يدعو المخاطب إلى مراجعة ما انتهى إليه. وهذا التدرج يمنح الحجة طابعاً تحليلياً؛ إذ لا يقتصر الخطاب على تقرير النتيجة، بل يوجه المتلقي إلى النظر في المقدمات التي تقتضيها.

ويفيد النظر في منهج شهيد القرآن في هذا الموضع في إبراز الطابع الحركي للخطاب القرآني؛ إذ تتعاقب المشاهد والدلائل ثم تأتي التعقيبات التي توجه الشعور والفكر إلى دلالتها. لكن هذا الجانب الأسلوبى ينبغي أن يبقى متصلاً بالتحليل النصي، لا أن يحل محله؛ فلا يكفي وصف الآيات بأنها مؤثرة أو حية لإثبات وجه الاستدلال فيها؛ بل لا بد من بيان الصلة بين المشهد والنتيجة التي يوجه إليها السياق، مع الرجوع إلى أقوال المفسرين عند اختلاف الدلالة أو احتمالها. (4)

ويُظهر مجموع هذه الشواهد أن مواجهة الشرك في هذا المقطع تتأسس على محاور مترابطة: تقرير الخلق، وبيان التسخير والتدبير، والمقارنة بين الخالق والمخلوق، والكشف عن التناقض بين دلائل القدرة ومواقف الجحود. ويضاف إلى ذلك اتصال هذه المحاور بمسألتى الوحي والبعث في سياقات السورة الأوسع. وهذه الروابط توفر مؤشرات يمكن استثمارها في

الفصل الثاني عند تحليل الترابط الموضوعي والاستدلالي، ثم ترجيحها في الفصل الثالث عند استقراء المقاصد العامة وتصنيفها وترجيح ما يفسر انتظامها.

ولا يقتضي هذا التحليل الجزم بأن مواجهة الشرك وحدها هي المقصد الجامع للسورة، كما لا يقتضي أن جميع موضوعاتها مجرد وسائل تابعة لها؛ فهذه نتيجة تتجاوز نطاق المبحث، ولا تثبت إلا بعد فحص مجموع الموضوعات والمقاطع، والنظر في مدى استقلال دلالاتها وتكاملها. أما النتيجة المحدودة التي يسندها التحليل هنا، فهي أن أدلة الخلق والتسخير تؤدي وظيفة واضحة في مواجهة الشرك، وأن الخطاب يربط بين إدراك هذه الأدلة وبين تصحيح موقف الإنسان من خالقه، مع إبقاء تحديد موقع هذه الوظيفة ضمن المقاصد العامة للسورة إلى مرحلة الاستقراء والترجيح.

الهوامش

(1) الطبري، محمد بن جرير. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تفسير سورة النحل، الآيتان ٣-٤؛ والقرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري. الجامع لأحكام القرآن، تفسير سورة النحل، الآيتان ٣-٤. (تختلف أرقام الصفحات باختلاف الطبعات؛ تُستكمل من النسخة المعتمدة).

(2) السعدي، عبد الرحمن بن ناصر. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تفسير سورة النحل، الآية ٤. (تُستكمل بيانات الطبعة والصفحة من النسخة المعتمدة).

(3) قطب، سيد، في ظلال القرآن، تفسير سورة النحل، الآيات ٣-١٨.

(4) ابن عاشور، محمد الطاهر. التحرير والتنوير، تفسير سورة النحل، الآيات ١٢-٢١.

النعم الإلهية ووظيفتها الاستدلالية

المحور الأول: مظاهر النعم الإلهية في الأنعام والزروع والثمار والعسل ودلالاتها

تحتل النعم الإلهية مساحة واسعة من البناء الموضوعي لسورة النحل، إذ تتتابع الآيات في عرض مظاهر الخلق والتسخير والرزق، وترتبط بينها وبين قدرة الله تعالى وحكمته وتديره. ولا يقتصر هذا العرض على تعداد النعم وتعريف الإنسان بما ينتفع به منها، بل يتجاوز ذلك إلى توجيه النظر نحو دلالاتها، وإثارة الوعي بعلاقة الإنسان بخالقه، وتنبيهه إلى ما يترتب على معرفة المنعم من أفراد الله بالعبادة وشكره. ومن ثم، فإن تحليل آيات النعم يقتضي التمييز بين النعمة بوصفها مظهرًا من مظاهر الإحسان الإلهي، والآية بوصفها دليلًا على الخالق، وما قد تكشف عنه هذه الدلالة من مؤشرات مقاصدية تحتاج إلى استقراء بقية السورة قبل تقريرها.

يبدأ عرض النعم في سياق السورة بذكر الأنعام وما يترتب على وجودها من منافع متعددة، قال تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (النحل: ٥-٧). ويكشف هذا المقطع عن تعدد وجوه الانتفاع بالأنعام؛ فمنها ما يتصل بالحاجات الأساسية، كالدفء والطعام، ومنها ما يتصل بالمنافع المتنوعة، ومنها ما يحقق للإنسان الجمال والسرور،

ومنها ما يعينه على الانتقال وحمل الأثقال. ويلاحظ أن التعبير القرآني لا يحصر النعمة في المنفعة المادية المباشرة، بل يضم إليها البعد الجمالي، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾؛ مما يدل على أن انتفاع الإنسان بال مخلوقات لا يقتصر على سد حاجاته الضرورية، وإنما يشمل ما يجده فيها من متعة وجمال.

ويؤدي هذا التنوع وظيفية استدلالية؛ إذ ينقل النظر من المخلوق إلى ما أودع الله فيه من خصائص ومنافع، ومن مشاهدة الانتفاع إلى إدراك ما وراءه من الخلق والتدبير؛ فالأنعام ليست مجرد موجودات ينتفع بها الإنسان، بل هي آيات تتجلى فيها ملاءمة الخلق لحاجات المخلوقين. ويؤكد هذا المعنى ختام الآيات بقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ﴾، إذ يربط الانتفاع بالنعم بصفة الرحمة الإلهية، ويوجه المتلقي إلى النظر في أصل الإحسان الذي تقوم عليه هذه المنافع.

ولا ينبغي أن يفهم هذا التسخير على أنه تفويض مطلق للإنسان في التعامل مع المخلوقات دون قيد؛ فالآيات تقرر الانتفاع بها في إطار العبودية لله، وتلفت النظر إلى مسؤولية الإنسان في إدراك النعمة وحسن استعمالها. وهذا المعنى الأخير يحتاج، عند تفصيل مقتضياته الأخلاقية والتشريعية، إلى ضم الآيات ذات الصلة بعضها إلى بعض، ولا يكفي لإثبات جميع تفاصيله مجرد ذكر المنافع.

ثم يتسع عرض النعم ليشمل وسائل الحركة والانتقال، قال تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨]. ويجمع النص بين وظيفتين ظاهرتين لهذه المخلوقات: الركوب والزينة. ويكشف هذا الجمع عن استمرار المنهج القرآني في عرض النعمة من جهات متعددة؛ فالمنفعة العملية ليست الوجه الوحيد الذي يلفت إليه الخطاب، بل تقترن بها قيمة جمالية تضاف إلى حياة الإنسان. أما قوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فيوسع أفق النظر من الموجودات المألوفة إلى ما يتجاوز علم الإنسان وإحاطته. ودلالته المباشرة أن الخلق الإلهي لا ينحصر في حدود ما يعرفه الإنسان أو يعهده؛ فلا يصح حصر مدلول الآية في وسيلة نقل أو اختراع بعينه، لأن لفظها أعم من ذلك، ولأن تعيين مصاديق مستقبلية محددة يحتاج إلى دليل مستقل. ومن الناحية الاستدلالية، يربي هذا التعبير على إدراك محدودية المعرفة البشرية، ويمنع اختزال القدرة الإلهية في صور المخلوقات التي ألفها الإنسان.

وتتوالى الآيات بعد ذلك في عرض نعمة الهداية وارتباطها بخلق الإنسان وتسخير الكون، قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهْدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل: ٩]. ويأتي هذا الانتقال بعد ذكر مخلوقات ينتفع بها الإنسان، ليضيف إلى مجال النعم الحسية بُعدًا يتعلق بالطريق الذي يسلكه الإنسان في حياته؛ فالسبيل القاصد هو الطريق المستقيم الذي يفضي

إلى الغاية الصحيحة، في حين تشير عبارة ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ إلى وجود طرق منحرفة عن الاستقامة.

وتكشف هذه الآية عن أهمية التمييز بين التسخير الكوني والهداية الدينية؛ فالأول يظهر في المخلوقات والمنافع التي ينتفع بها الإنسان، والثانية تتصل بمعرفة الطريق المستقيم واتباعه. ولا يعني ورود الهداية بعد ذكر النعم أن جميع النعم تؤدي وظيفة واحدة، وإنما يشير إلى اتساع مجال الإحسان الإلهي ليشمل ما ينتفع به الإنسان في معاشه وما يحتاج إليه في معرفة سبيل الحق.

وينتقل السياق إلى الماء وما يترتب عليه من حياة النبات والثمر، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾ [النحل: ١٠-١١].

تتضح في هاتين الآيتين العلاقة بين النعمة ودلالاتها الاستدلالية بصورة مباشرة؛ فالماء مورد للشرب، وبه ينبت النبات الذي ينتفع به الإنسان والأنعام، ومنه تنشأ محاصيل متنوعة تختلف في صورها وخصائصها ومنافعها. ويجمع هذا العرض بين وحدة المصدر وتعدد النتائج: فالماء المنزل من السماء واحد في أصله، بينما تتنوع آثاره في الزروع والأشجار والثمار. وهذا التنوع، مع ما يشتمل عليه من اختلاف المنافع، يوجه النظر إلى القدرة التي

أوجدت هذه الأسباب والنتائج، وإلى التدبير الذي تنتظم به مظاهر الحياة.

ولا يقف النص عند وصف الظاهرة، بل يصرح بوظيفتها الدلالية في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ فالمطلوب ليس مجرد مشاهدة المطر والنبات، بل الانتقال من المشاهدة إلى التفكير في دلالتها. والتفكير هنا عنصر أساسي في بنية الاستدلال؛ لأن ظهور النعمة لا يضمن وحده حصول المعرفة الصحيحة بها، وإنما يتطلب النظر في منشئها وآثارها والعلاقات التي تربط عناصرها.

ويترب على ذلك تمييز منهجي مهم: ليست كل إشارة إلى النعمة دليلاً مستقلاً على مقصد بعينه، لكن تكرر ربط النعم بالتفكير والآيات والقدرة والتدبير يجعلها **مؤشرات** جديرة بالاستقراء عند بحث المقاصد العامة للسورة. أما تحديد المرتبة المقاصدية لهذه الدلالة، وهل هي مقصد مستقل أم وسيلة إلى مقصد آخر، فيظل مؤجلاً إلى مرحلة الترجيح والموازنة .

ويتواصل عرض مظاهر التسخير في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١٣-١٢).
ويضيف هذا المقطع إلى النعم النباتية مظاهر كونية أوسع، تشمل تعاقب الليل والنهار، والشمس والقمر والنجوم، وما بثه الله في الأرض من مخلوقات مختلفة الألوان والخصائص.

ويستوقف النظر تغاير خواتيم الآيات بين التفكير والعقل والتذكر؛ فأية النبات تحيل إلى التفكير، وآية التسخير الكوني تحيل إلى التعقل، وآية ما بث في الأرض تحيل إلى التذكر. ولا يلزم من هذا التغاير إنشاء تقسيم اصطلاحي حاسم لوظائف هذه القوى المعرفية، لكنه يكشف عن تنوع طرائق تلقي الدلالة: فثمة نظر في الظواهر وآثارها، وإدراك للعلاقات التي تنتظمها، واستحضار لما تحمله من دلالات على الخالق والمنعم.

كما أن وصف المخلوقات بأنها ﴿مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ يربط انتظام الكون بالأمر الإلهي، فلا تُعرض الظواهر بوصفها وقائع منفصلة عن خالقها، بل باعتبارها جزءاً من نظام يجري بتقديره. ومن هنا، يتجه الاستدلال من مشاهدة النظام والتنوع إلى تقرير القدرة والتدبير، مع بقاء الحكم على الوظيفة المقاصدية النهائية لهذه الدلالة مرتبطاً بنتائج استقراء السورة كلها.

ويبلغ عرض النعم المادية مرحلة أخرى في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤]؛ ففي البحر غذاء وزينة، وفيه مجال لحركة السفن وطلب الرزق. ويجمع النص بين الانتفاع المباشر بالموجودات البحرية، وتسخير البيئة الطبيعية لخدمة الإنسان، وإمكان تحصيل المنافع الاقتصادية من خلالها.

ويأتي ختام الآية بقوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ليكشف عن صلة صريحة بين النعمة والاستجابة المطلوبة لها؛ فالشكر ليس

معنى أجنبياً عن عرض النعم، بل هو الغاية التي يوجه النص الإنسان إلى استحضارها عند تأمل وجوه الانتفاع. ولا يقتضي ذلك أن تكون جميع الآيات السابقة محصورة في هذا الغرض وحده، وإنما يثبت أن الشكر يمثل أحد الروابط الدلالية المهمة بين عرض النعم وتوجيه الإنسان إلى موقف تعبدى وأخلاقي إزاءها.

ويستكمل السياق عرض ما في الأرض من مظاهر التهيئة والانتفاع، قال تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (النحل: ١٥-١٦). ويظهر في هذا المقطع انتقال من عرض الموارد التي ينتفع بها الإنسان إلى بيان ما يهيئ له الاستقرار والحركة والاهتداء؛ فالرواسي مرتبطة باستقرار الأرض، والأنهار والسبل تتيح صوراً من الانتفاع والتنقل، والعلامات والنجوم تؤدي وظيفة الاهتداء.

ويلاحظ أن لفظ الهداية يتكرر في السياق السابق، في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ (النحل: ٩)، ثم يعود في الحديث عن السبل والعلامات والنجوم. ولا يلزم من هذا التكرار اتحاد المعنى في الموضعين؛ فالهداية في الآية التاسعة متصلة بالطريق القاصد والجائر، بينما يرد الاهتداء في الآيتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة ضمن سياق العلامات والسبل والنجوم. ومع ذلك، فإن تكرار اللفظ في سياقات متقاربة يستحق النظر عند دراسة الترابط الموضوعي؛ إذ قد يساهم في توسيع مجال الدلالة

من الاهتداء الحسي إلى الطريق إلى الاهتداء المعنوي، بشرط أن يثبت هذا الربط بقرائن النص، لا بمجرد الاشتراك اللفظي. وبعد عرض هذه المظاهر المتنوعة من النعم، يرد الاستفهام القرآني الحاسم: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]. وتؤدي هذه الآية وظيفة تتجاوز مجرد استكمال قائمة النعم؛ فهي تصوغ نتيجة استدلالية مستفادة من السياق السابق، وتضع الخالق في مقابلة ما لا يخلق؛ فبعد أن عرضت الآيات مظاهر القدرة والتسخير والإنعام، انتقل الخطاب إلى مواجهة التسوية بين الله تعالى وما يُعبد من دونه. وتكشف هذه النقلة عن أهمية ترتيب الأدلة في السياق: فالمشاهد الكونية والمنافع الحياتية لا تبقى مادة وصفية مستقلة، بل تدخل في بناء حجاجي ينتهي إلى تقرير التمايز بين الخالق وغيره. ومن ثم، فإن العلاقة بين آيات النعم وآية الاستفهام ليست مجرد مجاورة موضوعية؛ إذ تؤدي الآية السابعة عشرة وظيفة استنتاجية، تربط ما سبق من دلائل الخلق والتسخير بقضية التوحيد. ويؤيد ذلك قوله تعالى بعدها: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨]، حيث يتحول النظر من أمثلة النعم المعروضة إلى كثرتها التي يتعذر على الإنسان استيعابها وإحصاؤها. ويكشف هذا الانتقال عن مستويين متكاملين في الخطاب: مستوى الاستدلال بوجود النعم وتنوعها على الخلق والتدبير، ومستوى تذكير الإنسان بعجزه عن الإحاطة بمقدار الإنعام.

وليس المقصود من الآية الثامنة عشرة مجرد تقرير كثرة النعم، بل إبراز التفاوت بين اتساع الإحسان الإلهي ومحدودية قدرة الإنسان على الإحصاء والإحاطة. ويأتي وصف الله تعالى بالمغفرة والرحمة في ختامها ليذكر المتلقي بأن علاقته بربه لا تقوم على الإنعام وحده، بل تشمل كذلك المغفرة والرحمة.

ومن اللافت أن السورة لم تكتف بعرض نعم ظاهرة يمكن إدراكها بالحواس، بل تتابع في الآيات اللاحقة ذكر علم الله بما يسر الإنسان وما يعلن، ثم تقرر انفراد الله بالخلق والعلم والألوهية، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُغْلِبُونَ ۖ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۖ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: ١٩-٢١]. ويؤكد هذا الامتداد أن الاستدلال بالنعم مرتبط في السياق بقضية أوسع من مجرد الاعتراف بوجود منعم؛ فهو يسهم في بيان استحقاق الله للعبادة، في مقابل عجز المعبودات الباطلة عن الخلق والعلم والتدبير.

وبذلك يتضح أن عرض الأنعام والنبات والماء والبحر والظواهر الكونية في الآيات الأولى من السورة ليس عرضاً اعتباطياً أو منفصلاً عن غرض الخطاب؛ فالآيات تجمع بين بيان وجوه الانتفاع، وإثارة التفكير، والتذكير بقدرة الخالق وتدبيره، ثم الانتقال إلى الاستدلال على بطلان التسوية بين الخالق والمخلوق. وهذه الوظائف المتعددة تجعل آيات النعم مادة مركزية في تحليل البناء الموضوعي للسورة، لكنها لا تكفي وحدها

للحكم بأن النعم أو الشكر يمثلان المقصد الجامع؛ إذ ينبغي ترجيح هذه الدلالة في ضوء المقاطع الأخرى، ولا سيما ما يتصل بالوحي والنبوة والبعث والأحكام والتوجيهات العملية. ويستحق ذكر العسل في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَلِيَ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلًّا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٩] عناية خاصة؛ إذ يجمع هذا النص بين تسخير المخلوقات، ودقة انتظام سلوكها، وخروج شراب متنوع الألوان من بطون النحل، وما جعله الله فيه من شفاء للناس. ويُلاحظ أن الآية تختم بلفظ الآية والتفكير، على نحو يلتقي مع قوله تعالى في آية النبات: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١١]. وهذا التوازي اللفظي يتيح النظر في الصلة بين الموضعين، مع مراعاة أن دلالة كل منهما تتحدد بسياقه الخاص.

ويؤكد ذكر النحل والعسل أن عرض النعم في السورة لا يقتصر على الموارد الكبرى، كالماء والبحر والأنعام، بل يمتد إلى مخلوق صغير وما ينشأ عن سلوكه من منفعة للإنسان. وفي ذلك توجيه للنظر إلى أن دلالة القدرة والتدبير لا تتوقف على ضخامة المخلوق أو عظم المنفعة، بل تظهر كذلك في دقة الخلق وتنوع الوظائف والنتائج. كما أن إسناد الوحي إلى النحل في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨] يبرز انتظام سلوك هذا المخلوق وفق ما هداه الله إليه، من غير أن يقتضي ذلك مساواة

هذا الوحي بوحى الرسالة إلى الأنبياء؛ فالسياق يحدد معنى الوحي هنا في إطار الهداية والتوجيه الملائمين لطبيعة المخلوق.

أما قوله تعالى: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ فيثبت للعسل منفعة علاجية، لكنه لا يقتضي أن يكون شفاءً من كل مرض، ولا أن تُنسب إليه نتائج طبية تفصيلية لا يثبتها النص بذاته. والتميز هنا ضروري بين الدلالة القرآنية على أصل المنفعة، وبين الأحكام الطبية التطبيقية التي تحتاج إلى أدلتها ووسائل التحقق المناسبة لها. كما لا يصح تحميل الآية دعاوى علمية معاصرة تتجاوز مدلولها أو تجعلها تقريراً لتفاصيل لم ينص عليها القرآن. ومن جهة البناء الموضوعي، يكتسب موضع النحل أهمية إضافية بسبب وروده في السورة التي سميت به، وبسبب اتصاله بسياق طويل من عرض النعم. غير أن التسمية وحدها لا تكفي لإثبات أن النحل أو العسل هو المحور الجامع للسورة؛ إذ ينبغي النظر في حجم هذا المقطع ووظيفته وعلاقته بسائر الموضوعات، وموازنته بآيات الخلق والتوحيد والوحي والبعث والتشريع؛ فخصوصية هذا الموضع قرينة تستحق الدراسة، وليست حكماً مقاصدياً نهائياً.

ويُستفاد من مجموع هذه الآيات أن النعم تؤدي في سياق السورة وظائف متداخلة: فهي من جهة مظاهر إحسان ينتفع بها الإنسان، ومن جهة أخرى شواهد على الخلق والقدرة والتدبير، كما أنها تثير التفكير في المنعم وتفتح الطريق إلى مساءلة المعتقدات التي تناقض دلالات الخلق. وفي مواضع

معينة، يصرح النص بالاستجابة المطلوبة، كما في الدعوة إلى الشكر، بينما يترك في مواضع أخرى للمتلقي أن ينتقل من عرض الظاهرة إلى دلالتها بواسطة التفكير والتعقل والتذكر.

ولا ينبغي، مع ذلك، تسوية هذه الوظائف جميعاً في المرتبة؛ فبعضها يمثل منفعة مباشرة، وبعضها يقوم بدور الدليل، وبعضها يحدد الاستجابة المطلوبة، وبعضها يمهّد للانتقال إلى قضية أخرى. وهذا التمييز بين مستويات الدلالة ضروري حتى لا تتحول كثرة النعم إلى مجرد قائمة وصفية، أو يُجعل كل موضوع مقصداً مستقلاً دون ربط علاقته بالبناء الكلي.

وعليه، فإن المؤشر المقاصدي الذي يمكن تسجيله في هذا المحور هو أن عرض النعم في سورة النحل يتجاوز التعريف بمظاهر الإحسان إلى توظيفها في الاستدلال على الخلق والتدبير، وتوجيه الإنسان إلى التفكير في المنعم وشكره، ومواجهة الشرك الذي يناقض دلالة هذه الآيات. ويبقى تحديد ما إذا كان هذا المؤشر يمثل مقصداً مستقلاً، أو مقصداً تابعاً، أو وسيلة استدلالية ضمن مقصد أوسع، من مسائل الفصل الثالث، حيث تُستخلص الدلالات المرشحة في ضوء مجموع السورة وترابط مقاطعها.

الهوامش

(1) الطبري، محمد بن جرير. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تفسير سورة النحل، الآيات ٥-٢١، ٦٨-٦٩.

(2) القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري. الجامع لأحكام القرآن، تفسير سورة النحل، الآيات ٥-٢١، ٦٨-٦٩.

(3) السعدي، عبد الرحمن بن ناصر. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تفسير سورة النحل، الآيات ٥-٢١، ٦٨-٦٩.

(4) قطب، سيد؛ في ظلال القرآن، تفسير سورة النحل، الآيات ٥-٢١، ٦٨-٦٩.

(5) الشعراوي، محمد متولي. تفسير الشعراوي، تفسير سورة النحل، الآيات ٥-٢١، ٦٨-٦٩. (يُستكمل التحقق من بيانات الطبعة والصفحات قبل اعتماد الإحالات التفصيلية).



الوحي والنبوة والبعث والجزاء

المحور الأول: الوحي والقرآن الكريم وموقف المكذبين من الرسالة

يحتل الوحي موقعًا أساسيًا في البناء العقدي لسورة النحل؛ إذ تنتقل السورة من الاستدلال بآيات الخلق والكون على قدرة الله ووحدانيته إلى بيان مصدر الهداية التي تعرّف الإنسان بربه، وتكشف له حقيقة وجوده ومآله؛ فالكون، بما يشتمل عليه من دلائل القدرة والإحكام والتدبير، يفتح أمام العقل مجال النظر والاستدلال، بينما يأتي الوحي هدايةً إلهيةً تبين للإنسان ما يجب أن يؤمن به، وتحدد له معالم الطريق الذي ينبغي أن يسلكه في حياته. ومن ثم لا يظهر الحديث عن الوحي في السورة موضوعًا منفصلًا عن أدلة التوحيد والنعم، بل يتصل بها في سياق بيان صلة الإنسان بربه، ومصدر معرفته بالحق، ومسؤوليته عن الاستجابة له.

ويأتي قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢] ليقرر الصلة بين نزول الوحي والغاية العقدية التي يحملها. وقد عبّر القرآن عن الوحي بالروح، وهو وصف يبرز وظيفته في إحياء القلوب بالهداية والإيمان، وإخراج الإنسان من الجهل بحقيقة ربه إلى المعرفة التي تقوم على الوحي والبصيرة. ولا يقتصر مضمون الرسالة في هذه الآية على الإخبار بوجود الله، وإنما يتضمن تقرير وحدانيته، ثم توجيه الإنسان إلى التقوى بوصفها

مقتضى عملياً لهذا الإقرار. وهكذا يجمع الخطاب بين أصل الاعتقاد وأثره في السلوك، فلا يُعرض التوحيد حقيقةً ذهنيةً مجردة، بل حقيقةً تقتضي استجابةً عمليةً تتمثل في امتثال أمر الله واجتناب نهيه.

وتكشف هذه الآية عن ارتباط الوحي بالتوحيد من جهتين متكاملتين: فمن جهة، يأتي الوحي مؤكداً الحقيقة التي تشهد لها دلائل الخلق والتدبير؛ ومن جهة أخرى، يبين ما لا يستقل النظر البشري بمعرفة تفاصيله على الوجه الذي جاءت به الرسالة، ولا سيما ما يتعلق بأمر الله ونواهيه والغيب الذي أخبر به. وبذلك تتكامل دلالة الآيات الكونية مع هداية الوحي، دون أن يُجعل أحدهما بديلاً عن الآخر؛ فالاستدلال بالخلق يوجه النظر إلى الخالق، والوحي يعرف الإنسان بمقتضيات عبوديته، ويضبط استجابته لما دلت عليه آيات الكون.

ويتأكد هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٢٢]، ثم قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رُبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [النحل: ٢٤]؛ فالخطاب القرآني لا يكتفي بعرض موقف المكذبين، وإنما يكشف عن طبيعة الاستجابة التي يتلقون بها الوحي؛ إذ يتحول الإنكار من موقف فكري إلى حكم على الرسالة يصدر عن الاستكبار والإعراض عن الحق. ووصف القرآن بأنه «أساطير الأولين» لا يقدم دليلاً على بطلان الرسالة، وإنما يحكي

مقالة المكذبين التي يُراد بها صرف الناس عن سماع الوحي والنظر في حجته.

وتظهر هنا أهمية التمييز بين طبيعة الدليل وطبيعة الموقف منه؛ فوجود الحجة لا يستلزم أن يستجيب لها كل مخاطب، لأن الاستجابة لا تتعلق بوضوح الدليل وحده، بل تتصل كذلك بموقف الإنسان من الحق، ومدى استعداده لقبوله. وهذا ما يفسر اقتران الإنكار في الآية السابقة بالاستكبار؛ إذ لا يصور القرآن المشكلة على أنها نقص في المعلومات فحسب، وإنما يكشف عن خلل في موقف الإنسان من الهداية التي جاءته. ومع ذلك، لا يصح تعميم هذا الوصف على كل من توقف في مسألة عقدية أو طلب دليلاً عليها؛ لأن السياق يتناول موقف المكذبين كما حكاه القرآن، ولا يجيز التسوية بين الاستفسار الذي يقصد صاحبه به الوصول إلى الحق وبين الإعراض المتعمد عنه.

ويأتي الرد على مقالة المكذبين في قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥]؛ فالآية تربط موقف الإنسان من الوحي بمسؤوليته الأخروية، وتكشف أن الإعراض عن الرسالة قد يتجاوز أثره صاحبه إذا صار سبباً في تضليل الآخرين. ويؤكد ذلك أن الموقف من الوحي ليس شأنًا معرفيًا معزولاً عن العمل والجزاء، بل تترتب عليه مسؤولية تتناسب مع ما يصدر عن الإنسان من اعتقاد وقول وفعل، ومع ما يتسبب فيه من إضلال.

ولا تعني مشاركة المضلّين في أوزار من أضلوهم سقوط المسؤولية الشخصية عن الأتباع؛ إذ يقرر القرآن في مواضع أخرى أن كل إنسان مسؤول عن كسبه، وأن اتباع غيره لا يعفيه من تبعة اختياره. وإنما تدل آية النحل على أن المسؤولية قد تتعدد جهاتها: فالمضل يتحمل وزر تضليله، ويضاف إليه ما ينشأ عن فعله من أوزار الذين أضلهم، من غير أن ينقص ذلك من مسؤوليتهم عما اكتسبوه. وتؤدي هذه الدلالة وظيفة مهمة في سياق السورة؛ لأنها تصل بين موقف المكذبين من الوحي وبين عواقب هذا الموقف، وتكشف عن امتداد أثر الكلمة والموقف العقدي إلى المجال الاجتماعي والأخلاقي.

وفي مقابل هذا الإنكار، تقرر السورة حقيقة الوحي ومصدره في قوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠٢]؛ فالآية تجمع بين مصدر القرآن، وصدق مضمونه، ووظيفته في حياة المؤمنين؛ فهو منزل من الله بالحق، ويؤدي وظيفة التثبيت، ويهدي إلى الصواب، ويبشر المستجيبين له. وهذه الوظائف متكاملة؛ لأن الهداية تبين الطريق، والتثبيت يعين على الاستقامة عليه، والبشارة تفتح أفق الرجاء فيما أعده الله للمؤمنين.

ويبرز التثبيت هنا بوصفه وظيفة تتجاوز مجرد تلقي المعلومات؛ فالقرآن يخاطب العقل بالحجة، ويهدي القلب إلى الحق، ويعين المؤمن على الثبات حين تتعرض عقيدته للإنكار

أو التشكيك. ولا يلزم من ذلك أن كل اضطراب عارض في نفس الإنسان ينافي الإيمان، وإنما المقصود أن الوحي مصدر للهداية والتثبيت، وأن الرجوع إليه يعيد بناء التصور الإيماني على أساس من الحق الذي جاء به الرسول. ومن ثم فإن العلاقة بين الوحي والسلوك ليست علاقةً خارجيةً تضاف فيها الموعظة إلى المعرفة، بل علاقة تتصل بتكوين الإنسان وتوجيه اختياراته.

ويتصل بهذا قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]. ويفهم التبيان في سياقه بما يحقق غرض الهداية والبيان الذي أنزل القرآن من أجله، ولا يلزم منه أن يتضمن القرآن تفصيلاً مباشراً لكل جزئية من جزئيات المعرفة البشرية أو شؤون الحياة؛ إذ يتناول بيانه أصول الهداية وما يحتاج إليه المكلف في معرفة ربه وعبادته وسلوك سبيله، وقد يكون ذلك بالنص الصريح، أو بالقواعد الكلية، أو بما أحال إليه الوحي من البيان النبوي. ويمنع هذا الفهم من تحميل الآية ما لا يدل عليه سياقها، كما يمنع في المقابل من تضيق دلالة الكتاب على مجرد الوعظ المجرد عن التوجيه والتشريع.

وتتضح صلة هذه الآية بالبناء الموضوعي للسورة عند النظر إلى تنوع موضوعاتها؛ فقد تناولت دلائل الخلق، وتسخير المخلوقات، والرزق، والوحي، والبعث، والوفاء بالعهد، والعدل والإحسان، والحلال والحرام، وآداب الدعوة. ولا يكفي هذا التنوع وحده لإثبات مقصد جامع، لكنه يقدم مادةً يمكن ترجيح

العلاقات بينها: فالوحي يبين كيفية الاستجابة لله، ويضع التوجيهات العملية في إطار العبودية، ويربط المعرفة بالمسؤولية. وبذلك يصبح تنوع الموضوعات مجالاً لدراسة وظيفة القرآن في هداية الإنسان، لا مجرد قائمة من القضايا المتجاوزة.

وتتضمن السورة كذلك ردّاً على من نسب إلى النبي ﷺ افتراء القرآن، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النحل: ١٠٥]. وترد الآية على دعوى الافتراء في سياق بيان موقف المكذبين من آيات الله، فتقلب الاتهام الذي وجهوه إلى الرسول عليهم، وتكشف تناقض موقفهم من الحق. ويجب فهم هذا الرد في سياق الحاجة القرآنية، مع التمييز بين الحكم الذي يقرره النص في شأن من تعدد الكذب على الله، وبين إطلاق أحكام عامة على أشخاص أو جماعات خارج نطاق السياق الذي وردت فيه الآية.

ومن خلال هذه المواضع، يظهر أن السورة تعرض الوحي من جوانب مترابطة: مصدره الإلهي، ومضمونه الحق، ووظيفته في الهداية والتثبيت، وموقف المكذبين منه، والمسؤولية التي تترتب على قبوله أو الإعراض عنه. وتكشف هذه الجوانب عن **مؤشر مقاصدي محتمل** يتمثل في مركزية الهداية الإلهية في تصحيح معرفة الإنسان بربه وتوجيهه استجابته العملية. غير أن تحديد درجة استقلال هذا المعنى، وعلاقته بالمقاصد الأخرى في السورة، يظل مؤجلاً إلى مرحلة استقراء المقاصد وترجيحها؛

إذ لا يكفي ورود الوحي في مواضع متعددة للحكم بأنه مقصد
مستقل أو جزء من مقصد جامع قبل فحص مجموع السياقات
ووظائفها.



المحور الثاني: تقرير النبوة ومواجهة مواقف المنكرين

يتصل تقرير النبوة في سورة النحل بإثبات صدق الوحي وبيان طبيعة الرسالة ووظيفة الرسول في هداية الناس؛ فالسورة لا تعرض النبوة باعتبارها خبرًا تاريخيًا عن بعثة نبي، بل تجعلها جزءًا من الحجة التي تقيمها على المخاطبين، وتربطها بتوحيد الله، وبيان الطريق المستقيم، وإقامة الحجة على من بلغته الرسالة. ومن هنا ينبغي تحليل آيات النبوة في ضوء سياقاتها، والتمييز بين الدلالات التي تثبت النصوص مباشرة وبين النتائج التي يمكن استنباطها من مجموعها.

ويأتي قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣] في سياق الرد على استبعاد المشركين أن يكون الرسول بشرًا؛ فالآية تقرر أن إرسال البشر بالوحي ليس أمرًا مستحدثًا في تاريخ الرسالات، وإنما هو سنة إلهية سابقة. ويأتي الأمر بسؤال أهل الذكر في سياق إقامة الحجة على المخاطبين من خلال الرجوع إلى المعرفة التي يمكنهم التحقق منها، بما ينقض دعوى الاستبعاد القائم على مخالفة الرسول لما اعتادوه أو توقعوه.

ولا تنحصر الدلالة المنهجية للآية في إثبات بشرية الرسل، بل تتضمن كذلك توجيهًا إلى معالجة الجهل بالرجوع إلى أهل المعرفة. ومع ذلك، فإن الاستدلال بها على قواعد البحث العلمي ينبغي أن يظل منضبطًا بسياقها؛ فهي لا تسوي بين جميع

الأقوال لمجرد صدورها عن أصحاب اختصاص، وإنما تدل على مشروعية الرجوع إلى أهل الذكر فيما يجهله المخاطب، في إطار المحاجة التي وردت فيها. ويكشف ذلك عن تمييز قرآني بين العلم والجهل، وبين السؤال الذي يقصد به التحقق وبين الرفض الذي يصدر عن المكابرة.

ثم يبين القرآن وظيفة الرسول في قوله تعالى: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]؛ فالآية تجمع بين إنزال الذكر، وبيان الرسول لما أنزل إلى الناس، ودعوتهم إلى التفكير. ويظهر منها أن وظيفة النبي ﷺ لا تقتصر على نقل ألفاظ الوحي، بل تشمل البيان الذي يوضح للناس مراد الخطاب الإلهي وفق ما أذن الله به، ويعينهم على فهمه والعمل بمقتضاه.

ويترب على ذلك أن فهم القرآن لا ينفصل عن البيان النبوي، وأن التفسير لا يستقيم إذا عزل النص عن بيانه الثابت. وفي الوقت نفسه، لا يصح جعل كل ما يورده المفسرون في شرح الآيات بمنزلة البيان النبوي؛ إذ يتعين التمييز بين الحديث الصحيح، وفهم الصحابة، واجتهاد المفسرين، وما قد يرد في بعض كتب التفسير من أخبار تحتاج إلى نقد وتمحيص. وهذا التمييز مهم في الدراسة الحالية؛ لأن جمع الأقوال التفسيرية مرحلة من مراحل البحث، لكنه لا يكفي وحده لإثبات صحة القول أو قوة دلالاته.

وتختتم الآية بالإشارة إلى التفكير، وهو ما يبين أن البيان النبوي لا يلغي عمل العقل، بل يوجهه إلى فهم الوحي والنظر في دلالاته؛ فالتفكير المطلوب ليس انفصلاً عن النص أو تحرراً من ضوابطه، كما أنه ليس ترديداً للألفاظ دون إدراك معانيها؛ وإنما هو نظر في الدلالات والروابط التي تكشف عن هداية القرآن. ويمكن أن يُستفاد من ذلك في منهج الدراسة أن تحليل مقاطع السورة ينبغي أن يجمع بين بيان المعنى التفسيري للآيات، والنظر في وظائفها السياقية، دون تحميلها معاني لا يشهد لها اللفظ أو السياق.

وتواجه السورة مواقف المنكرين للنبوة من خلال كشف تناقض تصوراتهم، ومن ذلك اتهامهم الرسول بالافتراء، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣]. غير أن هذه الآية من سورة هود، فلا يجوز إدراجها ضمن الأدلة النصية الخاصة بسورة النحل دون تنبيه إلى موضعها. أما في سورة النحل نفسها، فيرد تقرير مصدر القرآن في قوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢]، ويرد وصف مقالة المكذبين في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [النحل: ٢٤]. ويظهر الجمع بين الموضعين أن السورة تعرض موقف الإنكار، ثم تقرر مصدر الرسالة ووظيفتها، دون أن يعني ذلك أن كل آيات النبوة قد وردت في سياق واحد أو تؤدي وظيفة متطابقة.

ويظهر جانب آخر من تقرير النبوة في استحضار تاريخ الرسالات، كما في قوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ٦٣]؛ فالآية تربط بين بعثة الرسل وبين موقف الأمم من دعوتهم، وتكشف عن عامل من عوامل الإعراض، هو تزيين الأعمال الباطلة حتى تبدو لأصحابها مقبولة أو جديرة بالاتباع. ولا يعني هذا أن كل مخالفة للحق ترجع إلى سبب واحد، وإنما يبين السياق أحد العوامل التي تسهم في استمرار التكذيب، وهو فساد المعيار الذي يزن به الإنسان أفعاله ومعتقداته.

وتتضح دلالة هذا المعنى عند ربطه بما سبق من وصف الاستكبار وإنكار الآخرة؛ إذ تشير هذه المواضع إلى أن موقف الإنسان من الرسالة قد يتأثر بتصورات السابقة، وبما يستحسنه من أعماله، وباستعداده لقبول ما يخالف مألوفه. لكن هذا الترابط يظل في هذه المرحلة **ملاحظة تحليلية** تحتاج إلى ترجيح في ضوء سائر المقاطع، ولا ينبغي تحويله إلى قاعدة كلية تفسر جميع صور الإنكار في السورة من غير استقراء.

كما تربط السورة بين وظيفة الرسالة ومبدأ إقامة الحجة، وتؤكد أن إرسال الرسل ليس عبثاً، وإنما هو جزء من الهداية الإلهية التي يتبين بها الحق للناس. ويظهر هذا المعنى في السياق الذي يعرض أحوال الأمم ومآل المكذبين، إذ لا ينفصل التكذيب عن المسؤولية، ولا ينفصل البيان عن إمكان الاستجابة. غير أن إقامة الحجة لا تعني أن جميع المخاطبين يستجيبون بالدرجة

نفسها، بل تعرض السورة تفاوت مواقفهم، وتبين عواقب الإيمان والتكذيب في ضوء عدل الله وحكمته. ومن جهة أخرى، ينبغي ألا تُختزل وظيفة النبي ﷺ في الإنذار وحده؛ فالسورة تجمع بين الإنذار والتبشير، وبين البيان والدعوة، وبين إقامة الحجة والتوجيه العملي. ويتضح هذا التنوع في قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]؛ فالآية، وإن وردت في سياق التوجيه إلى كيفية الدعوة، تكشف عن صلة وظيفة الرسالة بأساليب تبليغها؛ إذ لا يكفي أن يكون الحق صحيحًا في ذاته، بل ينبغي أن يُبلَّغ وفق ما يقتضيه المقام من حكمة وموعظة ومجادلة حسنة. ولا يعني ذلك أن الوسيلة محل مضمون الرسالة، وإنما أن حسن التبليغ من مقتضيات أداء وظيفتها.

وتكشف هذه الآيات عن مجموعة من الدلالات المرشحة المتعلقة بالنبوة: تقرير بشرية الرسل مع اصطفايتهم بالوحي، وبيان وظيفة الرسول في التبليغ والتفسير، وارتباط الرسالة بإقامة الحجة، وبيان أثر موقف الإنسان منها في مصيره، وضرورة مراعاة الحكمة في الدعوة إليها. غير أن تصنيف هذه الدلالات إلى مقاصد مستقلة أو تابعة أو وسائل ونتائج لا يُحسم في هذا المحور؛ إذ يتطلب ذلك مقارنتها بمجموع موضوعات السورة، وفحص مدى تكررها، وتحديد الوظيفة التي تؤديها في السياق العام. ويُترك هذا العمل للفصل الثالث، حيث تخضع

المقاصد المرشحة لمعايير الاستقلال والشمول والاتساق
السياقي والقدرة التفسيرية.



المحور الثالث: البعث والجزاء ومسؤولية الإنسان عن أعماله

يمثل الإيمان بالبعث والجزاء أحد الموضوعات العقدية البارزة في سورة النحل، ويتصل اتصاله المباشر بتقرير الألوهية والوحي؛ فالإيمان بالله لا يقتصر على الإقرار بوجود الخالق ووحدانيته، بل يشمل الإيمان بحكمته وعدله، وبأن الحياة الإنسانية لا تنتهي بالموت، وأن الأعمال والأقوال داخلة في الحساب الإلهي. كما أن الوحي يبين للإنسان حقيقة هذا المآل، ويحذره من الغفلة عنه، ويكشف له أن اختياراته في الدنيا ليست منفصلة عن عاقبته في الآخرة.

وتفتتح السورة بقوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، وهو افتتاح يثير قضية الأمر الإلهي وموقف الإنسان منه، ويهيئ لتلقي ما يأتي بعده من تقرير التوحيد والبعث ومواجهة المكذبين. وقد اختلف المفسرون في تعيين المراد بأمر الله في الآية، وربطوه بما يناسب السياق من مجيء ما وعد الله به، ومن ذلك ما يتعلق بالعذاب أو قيام الساعة. ولا يصح اختزال دلالة الافتتاح في تعيين واحد من هذه المعاني دون عرض أقوال المفسرين وقرائن السياق؛ فالمهم في هذا الموضع أن الآية تقرر حتمية الأمر الإلهي، وتنهى عن استعجاله، بما يضع الإنسان أمام حقيقة أن تقدير الله لا يتوقف على رغبات المكذبين أو استعجالهم.

وتأتي بعد ذلك آيات تتناول خلق السماوات والأرض، وخلق الإنسان، وتسخير المخلوقات، وهي موضوعات تقدم شواهد على القدرة والتدبير الإلهيين. ويمكن أن تسهم هذه الآيات في بناء الحجة على إمكان البعث من جهة الاستدلال بقدرة الخالق على الإنشاء والتدبير، لكن لا ينبغي أن يُجعل كل حديث عن الخلق دليلاً مباشراً على البعث ما لم يشهد السياق لهذه الصلة؛ فلاستدلال المقاصدي يقتضي التمييز بين الدلالة التي ينص عليها المقطع، والعلاقة التي يمكن استنباطها من انتظامه مع مقاطع أخرى.

وتصرح السورة بالبعث والحساب في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النحل: ٧٧]؛ فالآية تربط أمر الساعة بعموم القدرة الإلهية، وتقرر أن وقوعها لا يخرج عن سلطان الله. والتشبيه بلمح البصر يبرز سرعة تحقق الأمر بالنسبة إلى القدرة الإلهية، لا أنه يحدد زمن الساعة الذي استأثر الله بعلمه. وتؤكد خاتمة الآية أن القدرة التي شملت الخلق والتدبير لا يعجزها إحداث الساعة، في سياق يرد على التصورات التي تستبعد وقوعها أو تتعامل معها باعتبارها أمراً بعيداً لا يستحق الاستعداد.

ويتصل هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]؛ فالآية تذكر الإنسان بأصل

نشأته، وبأن ما اكتسبه من أدوات المعرفة والإدراك إنما هو من فضل الله. ويظهر من ذلك أن الإنسان لا يبدأ حياته مستقلاً بعلمه وقدرته، بل يتدرج في اكتساب المعرفة بوسائل وهبها الله له. ويمكن أن يكون هذا التذكير مدخلاً إلى فهم المسؤولية؛ لأن الإنسان الذي مُنح وسائل الإدراك والاختيار ليس معذوراً في تعطيلها عن النظر في دلائل الحق، وإن كانت المسؤولية التفصيلية تتفاوت بحسب القدرة وقيام الحجة.

وتبرز قضية البعث بوضوح في قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٣٨]؛ فالآية تحكي إنكار المكذبين للبعث، ثم ترد عليه بإثباته في صيغة مؤكدة، وتربطه بوعد الله الحق. ولا يعرض النص البعث باعتباره احتمالاً يتوقف على تقدير الإنسان، بل حقيقةً أخبر الله بوقوعها. ومن ثم فإن إنكار المكذبين لا يغير من حقيقة الوعد، وإنما يكشف عن قصور في تصورهم أو عن موقف يرفض ما أخبر به الوحي.

ويعقب هذا التقرير بيان الحكمة من البعث في قوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ [النحل: ٣٩]؛ فالآية تجعل من يوم البعث مناسبة لانكشاف الحقائق وظهور ما وقع فيه الناس من اختلاف، وتقرر أن إنكار المكذبين لا يبقى بلا مآل، بل ينتهي إلى ظهور صدق الوعد الإلهي وبطلان ما خالفه. ويكشف ذلك عن صلة البعث بالعدل الإلهي؛ إذ لا تستوي المواقف المتعارضة في

نهاية الأمر من غير بيان أو فصل، بل يأتي اليوم الذي تتضح فيه حقيقة ما اختلف فيه الناس.

ولا يعني هذا أن كل اختلاف بين البشر يُحسم بمجرد وقوعه، أو أن جميع مسائل الاختلاف من درجة واحدة؛ فالآية تتحدث عن البيان الإلهي الذي يقع يوم القيامة في شأن ما أخبر الله به، ولا تسوغ إلغاء الاجتهاد أو تجاهل قواعد النظر في مسائل الخلاف الدنيوي. ومن هنا يلزم التمييز بين الحقيقة الأخروية التي يقررها الوحي، وبين المسائل التي تتطلب بحثًا ونظرًا وترجيحًا في الحياة الدنيا.

ويؤكد السياق نفسه أن البعث ليس مجرد استعادة للحياة بعد الموت، بل هو أساس لإظهار العواقب المترتبة على الأعمال. ويتضح ذلك في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٠]؛ فالآية تتناول نموذجًا لمن تعرضوا للفتنة ثم هاجروا وجاهدوا وصبروا، وتقرر سعة المغفرة والرحمة لمن تاب وأصلح. وهي بذلك تبين أن مسؤولية الإنسان لا تُعرض في السورة ضمن إطار الوعيد وحده، بل يقابلها فتح باب التوبة والمغفرة، وأن العبرة ليست بمجرد وقوع الخطأ أو التعرض للابتلاء، وإنما بما يعقبه من رجوع وصبر وعمل صالح.

وتكشف هذه الدلالة عن توازن مهم في الخطاب القرآني بين المسؤولية والرجاء: فالإنسان محاسب على أعماله، لكنه ليس محكومًا باليأس إذا أخطأ أو ضعف، بل يظل باب التوبة مفتوحًا

وفق شروطها. ولا ينبغي تحويل هذا المعنى إلى تسوية بين الذنب والإصرار عليه وبين الخطأ الذي يعقبه ندم وإصلاح؛ فالآية نفسها تقرن المغفرة بسياق الهجرة والجهاد والصبر، بما يدل على أن الرجوع إلى الله يتجلى في تحول عملي، لا في مجرد ادعاء التوبة.

وتتصل المسؤولية الأخروية كذلك بموقف الإنسان من النعم؛ فالسورة تعرض صوراً متعددة من الرزق والتسخير، ثم تذكر ما يقع من جحود أو نسبة النعمة إلى غير الله. ويظهر هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [النحل: ٨٣]؛ فالآية تميز بين المعرفة بالنعمة وبين الاعتراف بمصدرها وما تقتضيه من شكر؛ إذ قد يعرف الإنسان النعمة من حيث وجودها وانتفاعه بها، ثم ينكر حق الله فيها أو ينسبها إلى غيره. ويكشف هذا الموقف عن خلل في الاستجابة، لا عن مجرد غياب المعرفة. وعندما تُقرأ هذه الآية إلى جانب آيات البعث والجزاء، يظهر احتمال وجود علاقة بين الجحود في الدنيا وبين المسؤولية الأخروية، إلا أن تحديد طبيعة هذه العلاقة ووظيفتها في المقصد العام يحتاج إلى فحص أوسع لمجموع سياقات السورة.

كما يبرز الجزاء في قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]. وتجمع الآية بين الإيمان والعمل الصالح والوعد بالجزاء، وتقرر أن معيار الوعد ليس الجنس، بل

تحقق الإيمان والعمل الصالح. كما تذكر الحياة الطيبة في الدنيا، ثم الأجر في الآخرة، بما يدل على أن أثر الإيمان لا ينحصر في الجزء المؤجل، وإن كان تحديد معنى الحياة الطيبة ومدى انطباقه على أحوال الناس يحتاج إلى مراعاة أقوال المفسرين وسياق الآية، ولا يصح اختزاله في ضمان الرفاه المادي أو انتفاء الابتلاء.

وتضيف هذه الآية بعدًا مهمًا إلى فهم المسؤولية؛ إذ لا يقتصر الخطاب على التحذير من العقوبة، بل يوجه إلى العمل الصالح ويعد عليه بالجزاء. ويترتب على ذلك أن الإيمان بالبعث لا ينبغي أن يُفهم بوصفه باعثًا على الخوف وحده، وإنما بوصفه عنصرًا في بناء تصور متكامل عن الحياة، يجمع بين التكليف والرجاء، وبين العمل في الدنيا وانتظار الجزاء في الآخرة. وهذه العلاقة بين الإيمان والعمل والمآل تمثل دلالة مرشحة يمكن فحصها لاحقًا في إطار المقاصد العامة للسورة.

وتتضح شمولية المسؤولية في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]؛ فالآية تجمع بين الشهادة على الأمم، وشهادة النبي ﷺ على قومه، وإنزال الكتاب بوظائفه من البيان والهداية والرحمة والبشارة. ويظهر من هذا السياق أن الحساب الأخروي يرتبط بقيام الحجة وتبليغ الرسالة، وأن الكتاب الذي

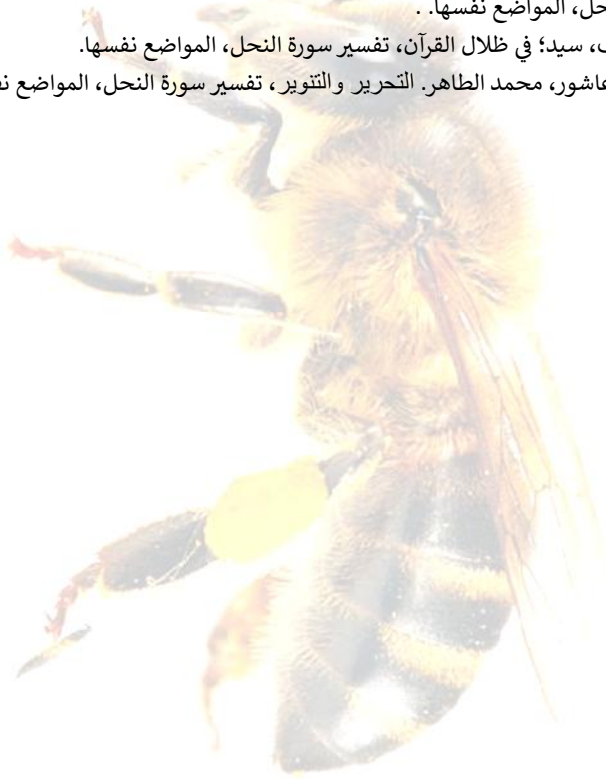
أنزل للهداية يؤدي دورًا في تعريف الناس بما خوطبوا به، فلا تنفصل المسؤولية عن البيان الإلهي.

ومن المهم هنا عدم تجاوز ما تدل عليه الآية إلى أحكام تفصيلية في شروط المؤاخذه أو مراتب قيام الحجة لا يعالجها هذا الموضوع وحده؛ فالدلالة المباشرة أن هناك بعثًا وشهادةً وكتابًا أنزل للهداية، أما تفصيل العلاقة بين بلوغ الرسالة والمسؤولية الفردية فيحتاج إلى ضم النصوص الأخرى ذات الصلة، مع مراعاة اختلاف أحوال المخاطبين وما تقرره الأدلة الشرعية في هذا الباب.

وتكشف هذه المواضع مجتمعةً عن عدد من الدلالات التي ينبغي إبقاؤها في هذه المرحلة ضمن نطاق المؤشرات المقاصدية، وأبرزها: تقرير حتمية البعث، وارتباطه بقدرة الله ووعد الحق، وكونه مجالًا لانكشاف الحقائق وظهور العواقب، وصلته بمسؤولية الإنسان عن الإيمان والعمل، مع اقتران الوعيد بفتح باب التوبة والرجاء. ويلاحظ أن هذه الدلالات لا تؤدي جميعها الوظيفة نفسها؛ فبعضها يقرر أصلًا عقديًا، وبعضها يبين وظيفة هذا الأصل في تقويم السلوك، وبعضها يكشف عن أثره في تصور الإنسان لمصيره. ومن ثم لا يصح عدّها مقاصد مستقلة لمجرد تعدد صيغها، بل ينبغي ترجيح مدى استقلالها وتداخلها في ضوء مجموع موضوعات السورة.

الهوامش

- (1) الطبري، محمد بن جرير. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تفسير سورة النحل، الآيات ١، ٢٢-٢٥، ٣٨-٣٩، ٧٧-٧٨، ٨٣، ٨٩، ٩٧، ١٠٢، ١٠٥، ١١٠ .
- (2) القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري. الجامع لأحكام القرآن، تفسير سورة النحل، المواضع نفسها. .
- (3) السعدي، عبد الرحمن بن ناصر. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تفسير سورة النحل، المواضع نفسها. .
- (4) قطب، سيد؛ في ظلال القرآن، تفسير سورة النحل، المواضع نفسها.
- (5) ابن عاشور، محمد الطاهر. التحرير والتنوير، تفسير سورة النحل، المواضع نفسها.



التوجيهات الأخلاقية والتشريعية والتربوية المحور الأول: العدل والإحسان والوفاء بالعهد في سياق السورة

تنتقل سورة النحل في مواضعها الأخيرة من تقرير أصول الاعتقاد والاستدلال على وحدانية الله بآيات الخلق والنعم إلى بيان جملة من التوجيهات الأخلاقية والتشريعية التي تضبط سلوك الإنسان وعلاقاته. ولا يأتي هذا الانتقال منفصلاً عن القضايا السابقة، بل يضع الاعتقاد في سياق الاستجابة العملية، ويكشف عن حضور المسؤولية الأخلاقية في الخطاب القرآني. ويرز هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

تتميز هذه الآية بصياغتها الجامعة التي تجمع بين الأمر بأصول من الفضائل والنهي عن أصول من الرذائل، ثم تختتم بوصف هذه التوجيهات بأنها موعظة غايتها التذكير. ويكشف تركيبها عن أن الخطاب الأخلاقي في السورة ليس مجموعة أحكام متفرقة، بل توجيه يراد به تقويم السلوك على أساس من العدل والإحسان، مع مقاومة ما يناقضهما من الفحشاء والمنكر والبغي. وقد أبرز المفسرون عموم دلالة العدل والإحسان، مع اختلاف عباراتهم في تفصيل أفراد كل منهما؛ فالعدل يتناول إعطاء الحقوق والقيام بالواجبات على وجهها، بينما يدل الإحسان على

تجاوز مجرد أداء الحق إلى فعل الخير وإتقانه وبذل ما يحقق
النفع المشروع للآخرين.(1)

ولا ينبغي اختزال العدل في المعاملات المالية أو القضاء بين
الخصوم، كما لا يصح قصر الإحسان على التبرع والصدقة؛ لأن
إطلاق اللفظين في الآية يسمح بدخولهما في مجالات متعددة
من حياة الإنسان، مع مراعاة ما يخصص بعض تطبيقاتهما من
الأدلة الأخرى؛ فالعدل أساس في أداء الحقوق، والوفاء
بالالتزامات، والحكم بين الناس، والتعامل مع المخالف،
والإحسان مرتبة تتجاوز الحد الأدنى من الإنصاف إلى حسن
الأداء وبذل المعروف. ومن ثم فإن الجمع بينهما يفتح مجالاً
لفهم التكامل بين صيانة الحقوق والارتقاء في المعاملة، دون
جعل الإحسان ذريعة إلى إسقاط الحقوق أو اعتبار العدل وحده
غاية تستنفد جميع المطالب الأخلاقية.

ويكتسب هذا الجمع دلالاته من مقابلة الأمر بالعدل والإحسان
بالنهي عن الفحشاء والمنكر والبغى؛ فالفحشاء تتصل بما اشتد
قبحه من الأقوال والأفعال، والمنكر يشمل ما تنكره الشريعة
والعقول السليمة وفق ضوابطها، والبغى يدل على مجاوزة الحد
والاعتداء على الحقوق. ويؤدي هذا التقابل وظيفة تفسيرية
مهمة؛ إذ لا يكتفي الخطاب ببيان السلوك المطلوب، بل يحدد
في الوقت نفسه أنماط الانحراف التي تهدم انتظام الحياة
الأخلاقية والاجتماعية. وبذلك تتكامل جهة البناء، المتمثلة في

العدل والإحسان، مع جهة المنع والحماية، المتمثلة في النهي عن الفحشاء والمنكر والبغي.

ويؤكد ختام الآية: ﴿يَعِظُكُم لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أن هذه التوجيهات ليست أوامر مجردة عن غاياتها التربوية؛ فالوعظ يستدعي استحضار الحق والعمل بمقتضاه، والتذكّر ينقل المعرفة من مستوى الإدراك إلى مستوى الاستجابة. غير أن هذا المعنى لا يقتضي أن كل امتثال أخلاقي يتحقق بمجرد معرفة الحكم؛ فالآية توجه إلى التذكّر بوصفه سبيلاً إلى الاستجابة، ولا تنفي ما قد يعترضها من هوى أو غفلة أو ضعف في الإرادة.

ويتصل بهذا البناء قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٩١]؛ فالوفاء بالعهد هنا التزام ديني وأخلاقي تؤكد مسؤلية الإنسان أمام الله، ولا ينحصر في الوفاء بالوعد المجرد، بل يرتبط كذلك بحزمة نقض الأيمان بعد توكيدها. وتكشف الآية عن بُعد يتجاوز ظاهر الالتزام إلى الرقابة الإلهية التي تحيط بالفعل الإنساني؛ فذكر علم الله بما يفعله الناس يجعل العهد مسؤلية لا تزول بانعدام الرقابة البشرية أو تعذر المحاسبة الدنيوية.

ويأتي النهي عن اتخاذ الأيمان وسيلة للغدر في الآية التالية: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَظَتْ غَزَلُهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا﴾ [النحل: ٩٢]. ويصور المثل نقض العهد بعد إحكامه في صورة عمل يهدم صاحبه ما بذله من جهد في بنائه. وتنبع قوة الصورة من

التناقض بين مرحلة الإحكام ومرحلة التفكيك؛ فكما لا يثمر الغزل إذا نُقِضَ بعد إبرامه، لا يستقيم التعامل إذا جعل الإنسان التزاماته أدوات مؤقتة يستخدمها لتحقيق مصلحته ثم يتخلى عنها. ويؤيد هذا السياق فهم الوفاء بوصفه مبدأ يحفظ استقرار الالتزامات، لا مجرد فضيلة فردية معزولة عن آثارها في الثقة المتبادلة.

ويظهر في الآية نفسها أن اتخاذ الأيمان وسيلة للخداع يناقض الغاية من العهد، حين يقول تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ [النحل: ٩٢]؛ فالدخل هو ما يُدْخَلُ في الأمر من فساد أو خداع، وتكشف الآية عن صورة من صور الانحراف الأخلاقي، تتمثل في نقض الالتزام حين يبدو أن مصلحة أخرى أرجح. ويمنع هذا السياق تفسير الوفاء تفسيراً شكلياً يقتصر على ألفاظ العهود، لأن المقصود يتصل بحقيقة الالتزام وعدم توظيفه وسيلة للإضرار بالآخرين.

ويعزز قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٣] بُعد المسؤولية في هذا السياق؛ إذ يرد اختلاف الناس في سياق المشيئة الإلهية، ثم يؤكد السؤال عن أعمالهم. ولا يصح فصل طرفي الآية على نحو يلغي أحدهما الآخر؛ فالإيمان بالمشيئة لا يسقط مسؤولية الإنسان عن عمله، كما أن تقرير المسؤولية لا يقتضي إخراج أفعال العباد عن سلطان الله.

والمقصود هنا إبراز أن العهود والأيمان ليست شأنًا اجتماعيًا محضًا، بل تدخل في دائرة العمل الذي يحاسب الإنسان عليه. ومن جهة أخرى، يربط السياق بين الوفاء بالعهد والأجر الآخروي، فيقول تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٩٥]، ثم يبين أن ما عند الله باقٍ، وأن جزاء الصابرين يكون بأحسن ما كانوا يعملون [النحل: ٩٦]. وبهذا لا يبقى الوفاء مجرد تنظيم للعلاقات في الحياة الدنيا، بل يتصل بالموازنة بين المنفعة العاجلة والقيمة الأخلاقية والجزاء الباقي. وتظهر هنا دلالة مرشحة تتمثل في أن السورة تصل بين استقامة السلوك واستحضار المسؤولية الآخروية، دون أن يعني ذلك أن هذا المعنى وحده يفسر جميع توجيهاتها.

ويكشف مجموع هذه الآيات عن ترابط بين العدل والإحسان والوفاء بالعهد؛ فالعدل يحفظ الحقوق، والإحسان يرتقي بالمعاملة إلى بذل الخير، والوفاء يمنع انهيار الالتزامات التي تقوم عليها الثقة بين الناس. كما أن النهي عن البغي ونقض العهد يبين أن فساد العلاقات لا ينشأ من الاعتداء المباشر وحده، بل قد ينشأ كذلك من استخدام الالتزامات الظاهرة غطاءً للمصلحة والخداع.

ومن ثم يمكن رصد مؤشر مقاصدي أولي في هذا النطاق، هو العناية بتقويم السلوك الإنساني على أساس من العدل والإحسان وصيانة العهود، وربط ذلك بالمسؤولية أمام الله.

ويبقى تحديد موقع هذا المعنى ضمن المقاصد العامة للسورة،
ودرجة استقلاله أو تبعيته، مؤجلاً إلى مرحلة الاستقراء
والترجيح في الفصل الثالث.



المحور الثاني: الأحكام المتعلقة بالحلال والحرام ومواجهة الشرك

تتناول سورة النحل الأحكام المتعلقة بالحلال والحرام في سياق يتجاوز بيان المباح والمحظور إلى نقد الممارسات التي تنسب إلى الدين ما لم يأذن به الله، أو تجعل الأهواء والأعراف المتوارثة مصدرًا مستقلًا للتشريع. ويظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ [النحل: ١١٦]؛ فالآية لا تنهى عن مجرد الخطأ في تسمية الأشياء، وإنما تحذر من إطلاق أحكام الحلال والحرام على وجه يُنسب فيه التشريع إلى الله بغير علم.

ويكشف التعبير القرآني ﴿لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ﴾ عن خطورة تحويل القول غير المستند إلى دليل إلى حكم يتداوله الناس حتى يكتسب سلطة العرف أو الاعتقاد؛ فاللسان قد ينقل دعوى لا أصل لها، ثم تتحول هذه الدعوى إلى ممارسة يُعامل بها الناس الأشياء والأشخاص. ومن هنا كان تحريم الافتراء على الله أوسع من مجرد الكذب في الأخبار؛ لأنه يتضمن نسبة الحكم الشرعي إلى مصدره الأعلى دون حجة معتبرة.

ويؤكد السياق هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦]، ثم يذكر المتاع القليل والعذاب الأليم [النحل: ١١٧]. وتكشف المقابلة بين المنفعة العاجلة والعاقبة الأخروية عن خلل الموازنة التي تدفع الإنسان إلى التضحية بصدق الدين طلبًا لمصلحة محدودة؛ فالمشكلة

ليست في مضمون الحكم الخاطئ فحسب، بل في ادعاء سلطة التشريع بغير حق، وما يترتب على ذلك من تضليل للناس وإفساد لمعيار التمييز بين المشروع والممنوع.

ويرتبط هذا السياق بما ورد في السورة من بيان بعض المحرمات، ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [النحل: ١١٥]؛ فالآية تحدد جملة من المحرمات، ثم تذكر حكم المضطر الذي لا يبغي ولا يتعدى، فتجمع بين بيان الحكم ومراعاة حالة الضرورة. ولا يصح فهم هذا الاستثناء على أنه إلغاء للتحريم، بل هو حكم شرعي يبين أن تنزيل الأحكام يراعي الأحوال التي دل عليها النص، وأن الضرورة المعتبرة لا تتحول إلى ذريعة لإهدار حدود الحكم خارج موضعها.

ويبرز في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ اتصال الحكم التشريعي بقضية التوحيد؛ إذ لا تقتصر دلالة المحرمات المذكورة على أحكام المطعومات، بل يدخل فيها ما يتصل بصرف النسك إلى غير الله؛ فذكر ما أهل به لغير الله يجعل التوحيد حاضرًا في تنظيم بعض الممارسات العملية، ويبين أن العبادة لا تنفصل عن تفاصيل السلوك الذي يحدد النص حكمه. ومع ذلك، ينبغي ألا يُختزل باب الحلال والحرام كله في هذه الدلالة العقدية، لأن أحكام المطعومات وغيرها لها تفصيلاتها وأدلتها، وإنما المقصود بيان الصلة التي أقامها النص بين بعض الأحكام وإفراد الله بالعبادة.

ويتسع هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، في سياق الحديث عن وسوسة الشيطان وإغوائه [النحل: ٩٨-١٠٠]. وتجمع هذه الآيات بين الانحراف السلوكي والانحراف المعرفي المتعلق بالقول على الله بغير علم. ووجه الاتصال أن فساد العمل قد يصحبه فساد في مصدر المعرفة والتوجيه، وأن نسبة الأحكام إلى الله دون مستند شرعي ليست مسألة علمية محضة، بل لها آثار في الاعتقاد والعبادة والسلوك.

ويظهر البعد النقدي للسورة بوضوح في تناولها بعض الممارسات التي اتخذها المشركون وسيلة لتبرير ما هم عليه؛ فقد حكى السورة عنهم قولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٣٥]. ويكشف هذا الاحتجاج عن توظيف المشيئة الإلهية لتبرير الشرك وما استحدثوه من تحريم، مع أن وقوع الفعل في الكون لا يدل بذاته على مشروعيته أو رضا الله به؛ فالسورة تميز ضمناً بين المشيئة الكونية التي يقع بها ما يقع، وبين الأمر الشرعي الذي يُعرف به ما يأذن الله به وما ينهى عنه.

وتؤكد هذه الدلالة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦]؛ غير أن هذه الآية من سورة الأنعام، ولذلك لا يجوز اتخاذها دليلاً مباشراً على تفصيل موضوع سورة النحل دون بيان وجه الاستشهاد القرآني العام. والأولى في تحليل سورة

النحل أن يُستند إلى ما ورد فيها من نقد احتجاج المشركين بالمشيئة، ومن إبطال الافتراء في أحكام الحلال والحرام، ثم تُستحضر النظائر القرآنية الأخرى في موضع المقارنة لا بوصفها جزءاً من سياق السورة نفسها.

ومن المهم هنا التمييز بين تحريم ما حرمه الله، وتحليل ما أحله، وبين استنباط أحكام ثم نسبتها إليه؛ فالسورة لا تدعو إلى تجاوز الأحكام أو التعامل معها باعتبارها أعرافاً قابلة للتبديل بالأهواء، بل تؤكد ضرورة استناد القول التشريعي إلى الوحي. ويترتب على ذلك أن الاجتهاد في فهم النصوص وتنزيلها يختلف عن الافتراء على الله؛ فالاجتهاد المنضبط يقوم على الأدلة وقواعد الاستنباط، ويظل قابلاً للمراجعة والنقد، أما الافتراء فيتمثل في نسبة حكم إلى الله دون علم أو حجة معتبرة.

وتتضح أهمية هذا الضابط في الدراسات التفسيرية؛ إذ ينبغي ألا يُحمّل النص حكماً تفصيلياً لا يدل عليه، وألا تُجعل الدلالة المحتملة دليلاً قاطعاً في موضع يحتاج إلى قرائن إضافية. كما ينبغي التفريق بين ما يقرره النص صراحة، وما يستنبطه المفسر من مجموع السياق، وما يظل احتمالاً يحتاج إلى استنباط. وهذا التفريق لازم لفهم آيات الحلال والحرام، ولا سيما حين تتصل بقضايا عقدية أو بممارسات اجتماعية توارثها الناس.

ويكشف مجموع هذه الآيات عن دلالة مرشحة تتمثل في ضبط التصور الديني والتشريع العملي بالوحي، ونقض الممارسات التي تنسب إلى الله ما لم يأذن به، مع بيان الصلة بين بعض الأحكام

وإفراد الله بالعبادة. غير أن تحديد مدى استقلال هذه الدلالة ضمن المقاصد العامة للسورة، وعلاقتها بمقاصد التوحيد والشكر والمسؤولية، يظل من أعمال الفصل الثالث، حيث تُستلخص في ضوء مجموع السياقات والقرائن.



المحور الثالث: الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والصبر والثبات على الحق

تجمع سورة النحل في آياتها الأخيرة بين تقرير أصول الاعتقاد، وبيان واجبات السلوك، وتوجيه المخاطبين إلى منهج الدعوة ومواجهة المخالفين. ويبرز هذا الجانب في قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]. وتحدد الآية ثلاثة أساليب للدعوة: الحكمة، والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن. ولا يلزم من هذا التقسيم أن تكون الأساليب منفصلة دائمًا، بل قد تتداخل في الخطاب الواحد بحسب حال المخاطب وطبيعة المسألة والغاية المقصودة.

وتدل الحكمة في هذا السياق على إحكام القول والعمل ووضع الخطاب في موضعه المناسب، بما يشمل وضوح الحجة، ومراعاة حال المخاطب، واختيار الأسلوب الذي يخدم بيان الحق؛ فلا تكون الحكمة مجرد امتلاك المعرفة، بل تتعلق كذلك بحسن توظيفها في مقام الدعوة. وقد يخلط الخطاب مع صحة بعض معلوماته إذا عُرِضت بطريقة لا تراعي المقام، أو إذا غلب عليه ما يصرف المخاطب عن فهم الحجة. ولذلك فإن تقديم الحكمة في الآية يلفت النظر إلى العلاقة بين مضمون الدعوة وطريقة تبليغه.

أما الموعظة الحسنة، فتقوم على التذكير الذي يخاطب العقل والوجدان، ويصل الحقائق الإيمانية بما يترتب عليها من

مسؤولية وعاقبة. ووصفها بالحسنة يقيدها بمضمونها وطريقتها؛ فلا تكون الموعظة قائمة على التهويل غير المنضبط، أو الانتقاص من المخاطب، أو نسبة ما لا دليل عليه إلى الدين. وإنما تستمد قوتها من صدق مضمونها، وحسن عرضها، وملاءمتها للحال التي تُوجَّه إليها.

وأما المجادلة بالتي هي أحسن، فتتعلق بمقام تتعارض فيه الأقوال أو تُطرح فيه الشبهات، فيحتاج الداعي إلى بيان الحجة ومناقشة الاعتراض. ولا تعني هذه الصياغة إلغاء الاختلاف أو الامتناع عن نقد القول المخالف، وإنما تضبط طريقة المناقشة بما يحفظ غايتها العلمية والدعوية؛ فالمقصود ليس الانتصار للنفس أو إذلال المخالف، بل بيان الحق بأقوى حجة ممكنة وأحسن أسلوب مشروع. وبذلك تميز الآية بين قوة البرهان وسوء المعاملة؛ إذ لا يلزم من صحة الحجة أن يكون كل أسلوب في عرضها مقبولاً.

ويؤكد ختام الآية هذا التوجيه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥]؛ فالداعية مأمور ببذل الوسع في البيان، لكنه لا يملك الحكم المطلق على مصائر الناس، ولا يستطيع ضمان استجابة كل من يخاطبه. ويؤدي هذا المعنى وظيفة تربوية؛ إذ يوجه الداعي إلى العناية بصحة البلاغ وحسن الوسيلة، مع إدراك حدود مسؤوليته البشرية؛ فلا يفهم من الآية إعفاء الداعي من تقويم

خطابه أو مراجعة وسائل دعوته، كما لا يفهم منها أن عدم استجابة المخاطب دليل كافٍ على فشل الداعي في أداء واجبه. ويأتي الأمر بالصبر في الآية التالية: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧]. ويرتبط هذا التوجيه بما قد يلقاه الداعي من إغراض ومقاومة ومكر؛ فبعد بيان الوسائل التي ينبغي أن يسلكها، يوجه الخطاب إلى الثبات وعدم الاستسلام للضيق الناشئ عن مواقف المخالفين. ويجمع قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ بين الأمر بالعمل والإقرار بالافتقار إلى العون الإلهي، فلا يتحول الصبر إلى اعتماد على القوة الذاتية وحدها، ولا يصبح التوكل ذريعة إلى ترك واجب الدعوة.

ولا يقتصر الصبر هنا على احتمال الأذى، بل يشمل الثبات على الحق، ومواصلة أداء الواجب، وضبط الانفعال عند مواجهة الاعتراض أو الاستفزاز. ومع ذلك، ينبغي ألا يجعل الصبر مرادفًا للسكوت عن كل مخالفة أو ترك تصحيح الخطأ؛ فالسياق نفسه يأمر بالدعوة والمجادلة، ثم يوجه إلى الصبر في أدائهما. ومن ثم فالصبر صفة لازمة لممارسة الدعوة على وجهها، لا بديل عن البيان والحجة.

ويتصل هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]؛ فخاتمة السورة تربط المعية الإلهية بالتقوى والإحسان، وهما وصفان يتصلان باستقامة القصد والعمل. وتأتي هذه الخاتمة بعد الأمر بالحكمة

والموعظة الحسنة والمجادلة والصبر، بما يسمح بقراءة الإحسان هنا في ضوء حسن أداء الواجب، والتزام التقوى في القول والعمل. غير أن هذا الاتصال لا يقتضي حصر معنى الإحسان في الدعوة وحدها، لأن اللفظ أوسع من ذلك، وإنما يبين مناسبة ختام السورة للسياق المباشر الذي ورد فيه.

ويفيد النظر في هذا المقطع أن الدعوة في سورة النحل ليست مجرد تبليغ للمعلومة، بل ممارسة تجمع بين صحة المحتوى، وحسن الوسيلة، وضبط العلاقة بالمخالف، والصبر على مقتضيات البلاغ؛ فالحكمة تتصل ببناء الخطاب، والموعظة الحسنة بتذكير المخاطب، والمجادلة بأداء الحجة، والصبر باستمرار العمل رغم ما يعترضه من مشقة. ويكمل هذه العناصر توجيهٌ إلى التقوى والإحسان، بما يمنع اختزال الدعوة في مهارة خطابية منفصلة عن أخلاق الداعي.

وتتصل هذه الدلالات بالتوجيهات الأخلاقية والتشريعية التي سبق تحليلها فيما سبق؛ فالعدل والإحسان والوفاء بالعهد تضبط علاقة الإنسان بالآخرين، كما تضبط الحكمة والموعظة والمجادلة طريقة مخاطبتهم ودعوتهم. وفي الحالتين، لا ينفصل المضمون عن طريقة أدائه، ولا تكفي الدعوى الصحيحة إذا ناقضتها الممارسة. وهذه ملاحظة تحليلية تسندها الصلات النصية بين الآيات، لكنها لا تكفي وحدها للحكم بأن الدعوة أو الأخلاق هما المقصد الجامع للسورة.

وعليه، يمكن تسجيل مؤشر مقاصدي أولي يتمثل في عناية السورة بتوجيه الاستجابة العملية للحق، من خلال تقويم السلوك، وصيانة الالتزامات، وضبط القول في الدين، وترشيد أساليب الدعوة، والتأكيد على الصبر والتقوى والإحسان. وتظل العلاقة بين هذا المؤشر وسائر الدلالات المستخرجة من السورة موضوعاً للترجيح في الفصل الثالث، حيث يُنظر في مدى استقلاله، ودرجة شموله، وصلته بالمقاصد المرشحة الأخرى.

الهوامش

- (1) الطبري، محمد بن جرير. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تفسير سورة النحل، الآيات ٩٠-٩٧، ١١٥-١١٧، ١٢٥-١٢٨.
- (2) القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري. الجامع لأحكام القرآن، تفسير سورة النحل، المواضع نفسها.
- (3) السعدي، عبد الرحمن بن ناصر. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تفسير سورة النحل، المواضع نفسها.
- (4) قطب، سيد؛ في ظلال القرآن، تفسير سورة النحل، المواضع نفسها.
- (5) ابن عاشور، محمد الطاهر. التحرير والتنوير، تفسير سورة النحل، المواضع نفسها.

المقاطع الموضوعية للسورة ووظائفها الأولية

المحور الأول: تحديد المقاطع المتتابعة وحدودها

وقرائن الانتقال بينها

يقتضي تحديد المقاطع الموضوعية في سورة النحل منهجًا يجمع بين مراعاة ترتيب الآيات في المصحف، وقرائن الانتقال الدلالي بينها، دون افتراض حدود مسبقة تُفرض على النص. وسورة النحل من السور التي تتعدد موضوعاتها وتتداخل مقاصدها، حتى وصفها شهيد القرآن بأنها «ملئنة حافلة» و«موضوعاتها الرئيسية كثيرة متنوعة». «وهذا التعدد يجعل مهمة التقطيع الموضوعي أكثر تعقيدًا من السور التي تدور على محور واحد، إذ لا يكفي النظر إلى تغير الموضوع الظاهري، بل يُحتاج إلى قرائن أخرى: تغير الخطاب بين الحجاج والتشريع والتذكير بالنعمة، وانتقال السياق من تقرير أصل عقدي إلى بيان مقتضاه العملي، وظهور فواصل أو استئنافات دلالية تفصل بين وحدات الخطاب.

ويمكن رصد ثلاث قرائن رئيسة للانتقال بين المقاطع في هذه السورة:

القرينة الأولى: تغير المخاطب أو نمط الخطاب. تفتتح السورة بخطاب موجه إلى الناس عامة في سياق الإنذار بأمر الله، ثم ينتقل الخطاب إلى الاستدلال الكوني، ثم إلى مواجهة المشركين، ثم إلى توجيه المؤمنين. وتغير المخاطب من الناس

إلى المشركين إلى المؤمنين مؤشراً على بداية مقطع جديد أو على الأقل على تحول في وظيفة المقطع.

القرينة الثانية: تغير الوظيفة الدلالية؛ فقد تبقى الموضوعات متجاوزة ظاهرياً، لكن الوظيفة تنتقل من التقرير إلى الاستدلال، أو من الاستدلال إلى التوجيه، أو من التوجيه إلى الإنذار؛ فمثلاً، آيات النعم في مطلع السورة (الآيات ٣-١٤) تؤدي وظيفة استدلالية على القدرة والوحدانية، بينما آيات النعم في موضع لاحق (الآيات ٦٦-٦٩) تنتقل من تعداد النعم إلى الاستدلال بها على التفرد بالربوبية والتحذير من الجحود. والتغير في الوظيفة قرينة أقوى من تغير الموضوع الظاهري.

القرينة الثالثة: الفواصل الاستثنائية والروابط اللفظية. تظهر في السورة آيات تُفتتح بـ «أفمن يخلق كمن لا يخلق»، أو «ضرب الله مثلاً»، أو «والله أخرجكم»، وهذه الفواصل تدل على انتقال إلى وحدة خطابية جديدة، أو على استئناف داخل المقطع الواحد. والتمييز بين الاستئناف الداخلي والانتقال إلى مقطع جديد يحتاج إلى النظر في الموضوع والوظيفة معاً، لا إلى اللفظ وحده.

وبناءً على هذه القرائن، يمكن تحديد مقاطع السورة على وجه أولي — قابل للمراجعة في ضوء التحليل التفصيلي — على النحو الآتي:

المقطع الأول (الآيات ١-٩): افتتاح السورة بالإنداز بأمر الله، وتقرير الألوهية والوحي، ثم الاستدلال بخلق السماوات والأرض والإنسان والأنعام على القدرة والتفرد.

المقطع الثاني (الآيات ١٠-٢١): عرض النعم الكونية (الماء، الزرع، الليل والنهار، الشمس والقمر، البحر، الجبال، السبل)، ثم الانتقال إلى مواجهة المشركين الذين يدعون من دون الله ما لا يخلق شيئاً.

المقطع الثالث (الآيات ٢٢-٥٦): تقرير وحدانية الله، ومواجهة الشرك وشبهات المشركين، والاستدلال بضرب الأمثال، وبيان سنة الله في الأمم المكذبة، وذكر مظاهر قدرته في الآفاق والأنفس.

المقطع الرابع (الآيات ٥٧-٦٩): مواجهة مزاعم المشركين في نسبة البنات إلى الله، ثم تعداد النعم في الأنعام والنخيل والأعشاب والنحل، مع التأكيد على التفرد بالخلق والرزق.

المقطع الخامس (الآيات ٧٠-٨٣): بيان فضل الله في الرزق والأزواج والبنين، وضرب المثليين (العبد المملوك والأبكم)، ثم تعداد نعم المساكن والظلال والثياب، والتحذير من جحود النعمة.

المقطع السادس (الآيات ٨٤-٨٩): مشاهد البعث والجزاء، وشهادة الأنبياء على أممهم، وإنزال الكتاب تبييناً لكل شيء.

المقطع السابع (الآيات ٩٠-١٠٠): التوجيهات الأخلاقية والتشريعية: العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، والنهي عن

الفحشاء والمنكر والبغي، والوفاء بالعهد، والاستعاذة عند تلاوة القرآن.

المقطع الثامن (الآيات ١٠١-١١١) : مواجهة شبهات المكذبين حول تبديل الآيات، وبيان أن القرآن نزل بالحق، والحديث عن الإكراه والكفر بعد الإيمان.

المقطع التاسع (الآيات ١١٢-١١٩) : ضرب مثل القرية الآمنة المطمئنة التي كفرت بنعمة الله، ثم الحديث عن التحليل والتحريم، واتباع ملة إبراهيم.

المقطع العاشر (الآيات ١٢٠-١٢٨) : خاتمة السورة: الثناء على إبراهيم، والأمر بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، والصبر، وبيان أن الله مع المتقين والمحسنين.

وهذا التقطيع أولي، ويُستكمل في المحور الثاني ببيان الموضوع الغالب والدلالات الرئيسة في كل مقطع، ثم يُضبط في المحور الثالث من خلال الجدول التحليلي الذي يكشف عن وظائف المقاطع وعلاقاتها.

المحور الثاني: بيان الموضوع الغالب والدلالات الرئيسية في كل مقطع

المقطع الأول (١-٩): موضوعه الغالب: تقرير الألوهية والوحي والبعث في مواجهة الشرك. تفتتح السورة ب﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، وهو افتتاح يجمع بين الإنذار بقرب الساعة وبين تنزيه الله عن الشرك. ثم ينتقل إلى إنزال الملائكة بالوحي، وخلق السماوات والأرض بالحق، وخلق الإنسان من نطفة، ثم تعداد نعم الأنعام والخيول والبغال والحمير. والدلالة الرئيسة في هذا المقطع: أن الألوهية تُقرر من خلال الخلق والتدبير والوحي، وأن الاستدلال بالنعم يبدأ مبكرًا في السورة، لكنه لم يبلغ بعدُ درجة الاستفاضة التي سيبلغها في المقاطع التالية.

المقطع الثاني (١٠-٢١): موضوعه الغالب: النعم الكونية والاستدلال بها على التفرد بالخلق والتدبير. يُعرض هنا الماء والزرع والزيتون والنخيل والأعناب والليل والنهار والشمس والقمر والنجوم والبحر والجبال والسبل والعلامات. وتتكرر خواتم الآيات بذكر «آية لقوم يتفكرون»، «آيات لقوم يعقلون»، «آية لقوم يذكرون»، «لعلكم تشكرون». والدلالة الرئيسة: أن النعم ليست تعدادًا للمنافع فحسب، بل أدلة على الوحدانية، وختامها بمواجهة المشركين: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾؛ فالانتقال من عرض النعم إلى نقد الشرك انتقال وظيفي، لا موضوعي فقط.

المقطع الثالث (٢٢-٥٦): موضوعه الغالب: **مواجهة الشرك وشبهات المشركين، وبيان سنة الله في المكذبين.** يبدأ بتقرير أن الله إله واحد، ثم يعرض شبهات المشركين في نسبة البنات إلى الله، واستعجالهم العذاب، ثم ينتقل إلى ذكر الأمم المكذبة، وإلى مظاهر قدرة الله في الآفاق والأنفس. ويظهر في هذا المقطع المثل الأول (العبد المملوك) في سياق الاستدلال على بطلان الشرك. والدلالة الرئيسة: أن المقطع يوظف الاستدلال العقلي والكوني والتاريخي لتفنيد الشرك، ويمهّد للمقابلة بين الشكر والجحود التي ستتضح في المقاطع اللاحقة.

المقطع الرابع (٥٧-٦٩): موضوعه الغالب: **النعم في الأنعام والثمار والنحل، والاستدلال بها على التفرد بالرزق.** يعرض المقطع نعمة اللبن من الأنعام، ثم السكر والرزق الحسن من النخيل والأعناب، ثم يخص النحل بآية مستقلة: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾. ويلاحظ أن ابن عاشور ربط بين هذه الآيات وذكر أن دلالة تكوين الألبان والعسل تحتاج إلى تدبر، ولذلك خُتمت بوصف «يعقلون» و«يتفكرون». والدلالة الرئيسة: أن المقطع يرفع من درجة الاستدلال بالنعم من مجرد العرض إلى التأمل في دقائق التكوين، ويجعل النحل نموذجًا للآية التي تجمع بين القدرة والحكمة والمنفعة.

المقطع الخامس (٧٠-٨٣): موضوعه الغالب: **النعم الاجتماعية والمنزلية، وضرب الأمثال، والتحذير من جحود النعمة.** يعرض فضل الله في الرزق والأزواج والبنين، ثم يضرب

المثلين: العبد المملوك، والأبكم. وقد ذكر شهيد القرآن أن هذين المثلين يختمان شوطاً في قضية الألوهية الواحدة، ويستدلان على بطلان التسوية بين الله والأصنام. ثم ينتقل إلى نعم المساكن والظلال والثياب، ويختتم بآية محورية: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾. والدلالة الرئيسة: أن المقطع يجعل النعمة موضوعاً للمعرفة والإنكار، لا مجرد موضوع للانتفاع، ويؤسس للانتقال من الاستدلال إلى المسؤولية.

المقطع السادس (٨٤-٨٩): موضوعه الغالب: **البعث والجزاء والشهادة**. يعرض مشاهد يوم القيامة، وشهادة الأنبياء على أممهم، وإنزال الكتاب تبييناً لكل شيء. والدلالة الرئيسة: أن المقطع يربط بين النعم السابقة والمسؤولية عنها في الآخرة، ويجعل الوحي (الكتاب) حجة على الناس، ويمهّد للتوجيهات التشريعية والأخلاقية التي تلي.

المقطع السابع (٩٠-١٠٠): موضوعه الغالب: **التوجيهات الأخلاقية والتشريعية القائمة على العقيدة**. يبدأ بآية العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغى، ثم الوفاء بالعهد، والاستعاذة عند تلاوة القرآن. والدلالة الرئيسة: أن هذا المقطع هو ذروة الانتقال من العقيدة إلى العمل، ويجعل الأخلاق والتشريع ثمرة للإيمان، لا إضافة عليه.

المقطع الثامن (١٠١-١١١): موضوعه الغالب: **مواجهة شبهات المكذبين حول القرآن والوحي**. يعرض شبهة تبديل الآيات، وبيان أن القرآن نزل بالحق، ثم الحديث عن الإكراه

والكفر بعد الإيمان. والدلالة الرئيسة: أن المقطع يعود إلى القضايا العقدية (الوحي) بعد التوجيهات العملية، مما يدل على أن السورة لا تسير في خط مستقيم من العقيدة إلى العمل، بل تتداخل المستويات لتأكيد التكامل.

المقطع التاسع (١١٢-١١٩): موضوعه الغالب: مثل القرية الكافرة بنعمة الله، والتحليل والتحريم، وملة إبراهيم. يعرض مثل القرية التي كانت آمنة مطمئنة فكفرت بنعمة الله، ثم يتناول التحليل والتحريم، وينتهي بالثناء على إبراهيم وبيان أنه كان أمة قانتًا. والدلالة الرئيسة: أن المقطع يعيد عرض موضوع النعمة والجحود في صورة جماعية (القرية)، ويصل بين إبراهيم والتوحيد والشكر.

المقطع العاشر (١٢٠-١٢٨): موضوعه الغالب: خاتمة السورة: الدعوة بالحكمة، والصبر، ووعد الله للمتقين. يثني على إبراهيم، ويأمر بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، ويأمر بالصبر، ويختتم ب﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾. والدلالة الرئيسة: أن الخاتمة تجمع بين التوحيد (إبراهيم) والدعوة (الحكمة) والصبر (الثبات)، وتختتم بوعد الله للمتقين المحسنين، وهو ما يربط بين العقيدة والأخلاق والسلوك.

المحور الثالث: إعداد الجدول التحليلي للمقاطع وظائفها وعلاقاتها الأولية

الآيات والموضوع الغالب	الوظيفة الأولية في البناء	العلاقة بما قبله	مؤشرات مقاصدية أولية (لا نهائية)
٩-١ تقرير الألوهية والوحي والبعث	تأسيس الإطار العقدي للسورة	(- افتتاح)	افتتاح بإنذار + تنزيه + خلق + وحي
٢١-١٠ النعم الكونية	الاستدلال على التفرد بالخلق والتدبير	امتداد للاستدلال بالخلق في المقطع الأول	نعم + خواتم (يتفكرون/يعق لون/يذكرون/ تشكرون) + نقد الشرك
٢٢- ٥٦ مواجهة الشرك وشبهاته	تفنيد الشرك بالدليل العقلي والكوني والتاريخي	انتقال من الاستدلال إلى المواجهة	أمثال + سنة الله في المكذبين + وحدانية
٦٩-٥٧ نعم الأنعام والثمار والنحل	رفع درجة الاستدلال من العرض إلى التأمل	تعميق موضوع النعم بعد المواجهة	النحل + «يعقلون» «يتفكرون»
٧٠- ٨٣ النعم الاجتماعية والأمثال	ربط النعمة بالمعرفة والإنكار	امتداد للنعم مع انتقال إلى المسؤولية	مثالان (عبد مملوك/أبكم) + «يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها»

الآيات والموضوع الغالب	الوظيفة الأولية في البناء	العلاقة بما قبله	مؤشرات مقاصدية أولية (لا نهائية)
٨٤-٨٩ البعث والجزاء والشهادة	ربط النعم بالمسؤولية الأخروية	انتقال من النعم إلى الجزاء	شهادة + كتاب + جزاء
٩٠-١٠٠ التوجيهات الأخلاقية والتشريعية	تحويل العقيدة إلى عمل	ثمرة عملية لما سبق	عدل + إحسان + وفاء بالعهد + استعادة
١٠١-١١١ شبهات حول القرآن والإكراه	تأكيد الوحي بعد التوجيه العملي	عودة إلى العقدي بعد العملي	تبديل الآيات + الحق + الإكراه
١١٢-١١٩ القرية الكافرة + إبراهيم	إعادة عرض النعمة/الجحود في صورة جماعية	تكثيف موضوع النعمة والجحود	قرية + تحليل/تحريم + إبراهيم
١٢٠-١٢٨ الدعوة بالحكمة والصبر	خاتمة جامعة بين التوحيد والدعوة والثبات	خاتمة تعود إلى إبراهيم وتختتم بالتقوى والإحسان	إبراهيم + حكمة + صبر + «مع الذين اتقوا»

الهوامش

- (1) ابن عاشور، محمد الطاهر. التحرير والتنوير، تفسير سورة النحل، الآيات ٦٨-٦٩. وينظر: قطب، سيد؛ في ظلال القرآن، تفسير سورة النحل، ج ٤، ص ٢١٥٧ وما بعدها، حيث يصف السورة بأنها «هادئة الإيقاع، عادية الجرس، ولكنها مليئة حافلة.»
- (2) قطب، سيد؛ في ظلال القرآن، ج ٤، ص ٢١٥٧-٢١٥٨ (وصف السورة وموضوعاتها).

- (3) ابن عاشور، التحرير والتنوير، تفسير الآية ٦٩ من سورة النحل.
(4) قطب، سيد؛ في ظلال القرآن، ج ٤، ص ٢١٨٤ (تفسير الآيات ٧٥-٧٦، المثلان).
(5) قطب، سيد؛ في ظلال القرآن، ج ٤، ص ٢١٨٥ (تفسير الآية ٨٣: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾).



الترابط الموضوعي والاستدلالي بين مقاطع سورة النحل

العلاقة بين افتتاح السورة وموضوعاتها الرئيسية المحور الأول: دلالة الافتتاح في توجيه الموضوعات الواردة في المقاطع اللاحقة

يقتضي تحليل العلاقة بين افتتاح سورة النحل وموضوعاتها الرئيسية تجاوز النظر إلى الافتتاح بوصفه وحدة مستقلة، إلى فحص الوظيفة التي يؤديها في توجيه قراءة المقاطع اللاحقة؛ فالافتتاح، في بنية السورة، ليس مجرد مدخل تمهيدي، بل هو الإطار الذي يحدد الأسئلة الكبرى التي تتفاعل معها الموضوعات اللاحقة، ويضع القارئ أمام مفاتيح دلالية تُستثمر في قراءة ما يأتي بعده. ومن ثم، فإن السؤال المنهجي في هذا المحور ليس: هل يوجد تشابه لفظي أو موضوعي بين الافتتاح والمقاطع اللاحقة؟ بل: كيف يوجه الافتتاح النظر إلى ما ينبغي أن تُقرأ به هذه المقاطع؟

ويمكن رصد ثلاثة مستويات لتوجيه الافتتاح لموضوعات السورة:

المستوى الأول: توجيه النظر إلى سلطان الله ونفاذ أمره؛
فقوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١] يضع القارئ أمام حقيقة أن أمر الله واقع لا محالة، وأن استعجال البشر لا يقدمه ولا يؤخره. وهذه الحقيقة تظل حاضرة في

المقاطع اللاحقة، لا بوصفها موضوعاً يُعاد ذكره بلفظه، بل بوصفها الإطار الذي تُفهم فيه مواقف المكذبين واستعجالهم للعذاب، وسنة الله في الأمم المكذبة، ومشاهد البعث والجزاء؛ فحين يعرض المقطع الثالث شبهات المشركين واستعجالهم، فإن الافتتاح يقدم المفتاح الدلالي لقراءة هذا الاستعجال: إنه موقف من أمر الله الذي وقع وتحققه، لا من وعد قابل للتخلف.

المستوى الثاني: توجيه النظر إلى التوحيد وتنزيه الله عن الشرك؛ فقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يفتح موضوع التوحيد بوصفه المحور العقدي الذي تنتظم به موضوعات السورة؛ فالمقاطع اللاحقة تعرض أدلة التوحيد من خلال الخلق والإنعام والوحي، وتواجه الشرك من خلال نقد شبهات المشركين، وتقرر استحقاق الله وحده للعبادة. والافتتاح، بتنزيهه الله عن الشرك، يهيئ القارئ لقراءة هذه الموضوعات بوصفها تفصيلاً لما أجمل في الافتتاح، لا بوصفها موضوعات منفصلة.

المستوى الثالث: توجيه النظر إلى الوحي ومصدر الهداية؛ فالآية الثانية ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ تربط الافتتاح بالوحي الذي يحمل مضمون التوحيد والإنذار. وهذا الربط يهيئ القارئ لقراءة مقاطع الوحي والنبوة في السورة بوصفها امتداداً لمضمون الافتتاح، لا بوصفها موضوعاً مستقلاً عنه.

غير أن هذا التوجيه لا ينبغي أن يُفهم بوصفه حتمية تفسيرية تجعل كل مقطع لاحق امتدادًا مباشرًا للافتتاح؛ فالسورة تتضمن مقاطع ذات وظائف خاصة، كالتوجيهات التشريعية والأخلاقية، والأمثال، والخطاب المتعلق بإبراهيم عليه السلام. وهذه المقاطع لا تُقرأ بالضرورة بوصفها تفصيلًا للافتتاح، بل بوصفها عناصر في بناء كلي يتفاعل مع الافتتاح تفاعلاً غير خطي. ومن ثم، فإن دراسة العلاقة بين الافتتاح والموضوعات اللاحقة تحتاج إلى تمييز بين:

١. **علاقة مباشرة:** حيث يظهر أثر الافتتاح في مضمون المقطع بصورة واضحة (كما في مقاطع التوحيد والوحي والبعث).
 ٢. **علاقة غير مباشرة:** حيث يتفاعل المقطع مع أسئلة الافتتاح من زاوية مختلفة (كما في المقاطع التشريعية التي تترجم التوحيد إلى سلوك).
 ٣. **علاقة وظيفية:** حيث يؤدي المقطع وظيفة في البناء الكلي قد لا تكون ظاهرة من مجرد مقارنته بالافتتاح، لكنها تتكشف عند النظر في العلاقات بين المقاطع.
- وهذا التمييز يمنع من إسقاط علاقة واحدة على جميع المقاطع، ويحفظ لكل مقطع خصوصيته في البناء.

المحور الثاني: تجليات القضايا التي يثيرها الافتتاح في سياقات السورة

لا يقتصر أثر الافتتاح على توجيه القراءة النظرية، بل يتجلى في سياقات متعددة داخل السورة، حيث تعود القضايا التي يثيرها الافتتاح بصور مختلفة، وتتفاعل مع موضوعات المقاطع اللاحقة. ويمكن رصد أربعة تجليات رئيسية:

التجلي الأول: حتمية أمر الله في مواجهة استعجال المكذابين. يثير الافتتاح قضية عدم استعجال أمر الله، ثم تعود هذه القضية في المقطع الثالث حيث يقول تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [النحل: ٦١ في سياق قريب]، وفي مواضع أخرى. وتكشف هذه العودة أن استعجال المكذابين ليس موقفاً عابراً، بل هو تعبير عن خلل في تصورهم لأمر الله وسلطانه. والافتتاح، بتقريره حتمية الأمر، يقدم الإطار الذي تُقرأ به هذه المواقف: إنها مواقف من أمر واقع، لا من وعد مشكوك فيه.

التجلي الثاني: تنزيه الله عن الشرك في سياقات متعددة. يفتح الافتتاح بتنزيه الله عن الشرك، ثم يتكرر هذا التنزيه في مواضع متعددة من السورة، كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٣]، وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُغْلِبُونَ﴾ [النحل: ١٩] في سياق نقد الشرك. وتكشف هذه العودة أن التنزيه ليس مجرد تعقيب لفظي، بل هو محور دلالي يعود في سياقات مختلفة: بعد ذكر الخلق، وبعد

عرض النعم، وبعد نقد شبهات المشركين. وهذا التكرار يخدم وظيفة تثبيت التوحيد في وعي المتلقي، لا مجرد تكرار لفظي.

التجلي الثالث: الوحي بوصفه امتداداً لأمر الله. يربط الافتتاح بين أمر الله وإنزال الوحي، ثم تعود قضية الوحي في مقاطع متعددة: في المقطع الثالث حيث يواجه المشركون الرسالة، وفي المقطع الثامن حيث تُعرض شبهات حول تبديل الآيات، وفي المقطع العاشر حيث تُقرر وظيفة الدعوة. وتكشف هذه العودة أن الوحي ليس موضوعاً منفصلاً، بل هو الوسيلة التي يبلغ بها أمر الله إلى الناس، والافتتاح يضع هذا الربط منذ البداية.

التجلي الرابع: النعم بوصفها مجالاً للاستدلال والتذكير. يثير الافتتاح قضية سلطان الله وتنزيهه، ثم تعرض المقاطع اللاحقة النعم بوصفها مجالاً للاستدلال على هذا السلطان. غير أن العلاقة بين الافتتاح والنعم ليست علاقة مباشرة، بل وسيطة: فالافتتاح يقرر سلطان الله، والنعم تُعرض بوصفها شواهد على هذا السلطان، ثم يُوجَّه الإنسان إلى الشكر والتفكر. وهذا التوسط في العلاقة يمنع من اختزال النعم في وظيفة واحدة، ويحفظ لها تنوع وظائفها في البناء.

ويلاحظ أن هذه التجليات لا تؤدي جميعها الوظيفة نفسها؛ فبعضها يخدم تثبيت التوحيد، وبعضها يخدم تفسير مواقف المكذبين، وبعضها يخدم ربط الوحي بمصدره. وهذا التنوع في الوظائف يدل على أن الافتتاح ليس مجرد مقدمة، بل هو إطار

ديناميكي يتفاعل مع موضوعات السورة بطرق متعددة، دون أن يفرض على كل مقطع وظيفة واحدة.



المحور الثالث: حدود دلالة الافتتاح في تفسير البناء الموضوعي للسورة

بعد عرض مستويات توجيه الافتتاح وتجلياته في سياقات السورة، يلزم تحديد حدود دلالاته في تفسير البناء الموضوعي، أي تحديد ما يستطيع الافتتاح تفسيره وما لا يستطيعه، وما يحتاج إلى قرائن إضافية.

الحد الأول: الافتتاح لا يفسر وحده جميع موضوعات السورة؛ فالاتفتح يوجه النظر إلى سلطان الله والتوحيد والوحي، لكنه لا يفسر بمفرده وجود مقاطع التشريع والأخلاق والأمثال والخطاب الإبراهيمي. هذه المقاطع تحتاج إلى قرائن أخرى لفهم وظائفها، كالعلاقة بين العقيدة والعمل، ووظيفة الأمثال في الاستدلال، ووظيفة الخطاب الإبراهيمي في بناء نموذج التوحيد والشكر. ومن ثم، فإن الاعتماد على الافتتاح وحده لتفسير البناء الكلي للسورة يؤدي إلى إغفال وظائف مقاطع مهمة، أو إلى تحميلها ما لا تحتمله.

الحد الثاني: الافتتاح لا يحدد ترتيب الموضوعات؛ فالاتفتح يؤثر قضايا كبرى، لكنه لا يحدد لماذا جاءت هذه الموضوعات بهذا الترتيب، ولماذا تقدمت النعم على بعض القضايا العقدية في مواضع، وتأخرت في أخرى. تفسير الترتيب يحتاج إلى النظر في العلاقات بين المقاطع، وفي وظائف كل مقطع في البناء، وليس فقط في العلاقة بينه وبين الافتتاح.

الحد الثالث: الافتتاح لا يثبت وحدة موضوعية للسورة؛

وجود علاقة بين الافتتاح والموضوعات اللاحقة لا يثبت بالضرورة أن السورة ذات وحدة موضوعية مقصودة؛ فقد تكون العلاقة علاقة توجيه عام، دون أن تنتظم جميع الموضوعات في مقصد جامع. وإثبات الوحدة يحتاج إلى تحليل العلاقات بين المقاطع جميعاً، ثم استخلاص المقاصد في الفصل الثالث.

الحد الرابع: الافتتاح لا يعفي من تحليل كل مقطع في سياقه الخاص؛ فالافتتاح يوفر إطاراً عاماً، لكن دلالة كل مقطع تتحدد بسياقه الخاص، وبعلاقته بما قبله وما بعده. ومن ثم، فإن تفسير مقطع النعم في ضوء الافتتاح لا يعفي من تحليل سياقه الخاص، ووظيفته في موضعه، وعلاقته بالمقاطع المجاورة.

وهذه الحدود لا تُقلل من أهمية الافتتاح، بل تضبط وظيفته: فهو مفتاح قراءة لا مفتاح تفسير شامل، وإطار توجيه لا بديل عن تحليل العلاقات. وبهذا الضبط، يمكن الاستفادة من دلالة الافتتاح دون إسقاط أو تحميل.

الترابط بين عرض النعم وتقرير التوحيد والشكر ومواجهة الشرك والجحود

المحور الأول: انتقال عرض النعم من بيان مظاهرها إلى الاستدلال بها على التوحيد

يُعدّ انتقال عرض النعم من بيان مظاهرها إلى الاستدلال بها على التوحيد من أبرز ملامح الترابط في سورة النحل؛ فالسورة لا تعرض النعم بوصفها قائمة من المنافع المستقلة، بل توظفها في بناء حجاجي متدرج ينتهي إلى تقرير التوحيد. وهذا الانتقال لا يحدث دفعة واحدة، بل يمر بمراحل متدرجة يمكن رصدها في السياق.

المرحلة الأولى: عرض النعم بوصفها مظاهر للخلق والتدبير .
تبدأ السورة بعرض النعم من خلال ذكر الأنعام وما فيها من دفع ومنافع وجمال [النحل: ٥-٧]، ثم الخيل والبغال والحمير للركوب والزينة [النحل: ٨]، ثم الماء وما ينبته من زرع وثمر [النحل: ١٠-١١]، ثم تسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم [النحل: ١٢]، ثم البحر وما فيه من منافع [النحل: ١٤]، ثم الجبال والأنهار والسبل والعلامات [النحل: ١٥-١٦]. وفي هذه المرحلة، تُعرض النعم بوصفها مظاهر للخلق والتدبير، مع توجيه النظر إلى دلالتها من خلال خواتم الآيات: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

المرحلة الثانية: الانتقال من العرض إلى الاستفهام الاستدلالي. بعد عرض هذه المظاهر، يأتي الاستفهام الحاسم: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]. وهذا الاستفهام لا يضيف معلومة جديدة، بل يستخلص نتيجة من العرض السابق: إذا كانت هذه المخلوقات آيات على الخلق والتدبير، فمن لا يخلق لا يستحق أن يُسَوَّى بالخالق. وبهذا الانتقال، تتحول النعم من موضوع وصفي إلى دليل استدلالي.

المرحلة الثالثة: تعميق الاستدلال من خلال نقد الشرك. بعد الاستفهام، ينتقل السياق إلى نقد الشرك بصورة مباشرة: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [النحل: ٢٠]، ثم ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: ٢١]. وبهذا، يكتمل البناء الاستدلالي: عرض النعم → الاستفهام الاستدلالي → نقد الشرك. وهذا البناء يكشف أن النعم لم تُعرض لذاتها، بل لخدمة تقرير التوحيد.

المرحلة الرابعة: إعادة عرض النعم في سياقات لاحقة بوظائف متغيرة. لا يتوقف عرض النعم عند المقطع الأول، بل يعود في مقاطع لاحقة، لكن بوظائف مختلفة؛ ففي المقطع الرابع [النحل: ٦٦-٦٩]، تُعرض نعم اللبن والسكر والعسل، لكن الوظيفة هنا أعمق: التأمل في دقة التكوين، وربط النعمة بالتفكير والتعقل. وفي المقطع الخامس [النحل: ٧٠-٨٣]، تُعرض النعم الاجتماعية (الرزق والأزواج والبنين والمساكن)، لكن الوظيفة تنتقل إلى ربط النعمة بالمعرفة والإنكار: ﴿يَعْرِفُونَ

نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُ وَهَهَا ﴿[النحل: ٨٣]. وفي المقطع التاسع [النحل: ١١٢-١١٩]، تُعرض النعمة في صورة جماعية (القرية الآمنة المطمئنة التي كفرت بنعمة الله)، والوظيفة هنا إعادة عرض موضوع الجحود في سياق اجتماعي.

وهذا التغير في الوظائف لا يعني انفصال المقاطع، بل يعني أن النعم تؤدي وظائف متعددة في البناء الكلي: الاستدلال على التوحيد، والتأمل في دقة التكوين، وربط النعمة بالمسؤولية، وعرض الجحود في صورة جماعية. وكل وظيفة تخدم البناء الكلي من زاوية مختلفة، دون أن تلغي الوظائف الأخرى.



المحور الثاني: العلاقة بين تقرير التوحيد والتوجيه إلى الشكر

تتأسس العلاقة بين تقرير التوحيد والتوجيه إلى الشكر في سورة النحل على منطق داخلي يربط بين المعرفة والاستجابة؛ فالتوحيد ليس مجرد إقرار ذهني بوجود الخالق ووحدانيته، بل هو حقيقة تقتضي استجابة عملية تتمثل في الشكر. وهذا الربط يظهر في السورة بصور متعددة:

الصورة الأولى: ربط الشكر بذكر النعم مباشرة؛ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤]، يأتي الشكر ختامًا لعرض نعم البحر. وهذا الربط المباشر يكشف أن الشكر ليس معنى أجنبيًا عن عرض النعم، بل هو الاستجابة المطلوبة له.

الصورة الثانية: ربط الشكر بذكر النعم بعد الاستدلال؛ في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، يأتي الشكر بعد ذكر النعم التي توجب الاستدلال على القدرة. وهذا الربط يكشف أن الشكر ليس مجرد رد فعل عاطفي، بل هو استجابة عقلية وقلبية وعملية لما تدل عليه النعم.

الصورة الثالثة: ربط الشكر بالتوحيد من خلال نقد الجحود؛
في قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ
الْكَافِرُونَ﴾ [النحل: ٨٣]، يكشف النص أن الجحود ليس مجرد
عدم شكر، بل هو إنكار لحقيقة التوحيد؛ فمن يعرف النعمة ثم
ينكرها، فإنه ينكر في الحقيقة المنعم، وهذا الإنكار يتناقض مع
الإقرار بالتوحيد.

وهذه الصور الثلاث تكشف أن العلاقة بين التوحيد والشكر
ليست علاقة إضافة خارجية، بل علاقة تلازم: فالتوحيد
يقتضي الشكر، والشكر يعمق التوحيد. وهذا التلازم يخدم البناء
الكلي للسورة؛ لأن السورة لا تكفي بتقرير التوحيد نظريًا، بل
تسعى إلى تحويله إلى استجابة عملية.

غير أن هذا التلازم لا ينبغي أن يفهم بوصفه تحديدًا للمقصد
الجامع للسورة؛ فالشكر قد يكون مقصدًا فرعيًا، أو وسيلة
لتحقيق مقصد أوسع، أو نتيجة مترتبة على التوحيد. وتحديد
موقعه في البناء الكلي يحتاج إلى ترجيح في ضوء مجموع
المقاطع، لا إلى استنتاج من العلاقة بين التوحيد والشكر
وحدها.

المحور الثالث: المقابلة بين الشكر والجحود

ووظيفتها في انتظام المعاني

تُعَدُّ المقابلة بين الشكر والجحود من أبرز العناصر التي تنتظم بها معاني سورة النحل؛ فالسورة لا تعرض الشكر بمعزل عن الجحود، ولا الجحود بمعزل عن الشكر، بل تقيم بينهما مقابلة تكشف عن طبيعة الاستجابة الإنسانية للنعم، وعن عواقب كل موقف.

المقابلة الأولى: مقابلة الشكر بالجحود في سياق النعم؛ في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، يُدعى الإنسان إلى الشكر. وفي المقابل، في قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣]، يُكشف عن موقف الجحود. وبين الآيتين مسافة قصيرة، تكشف عن أن الإنسان بين موقفين: الشكر والجحود.

المقابلة الثانية: مقابلة الشكر بالجحود في سياق القرية؛ في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢]، تُعرض القرية التي كانت آمنة مطمئنة، ثم كفرت بأنعم الله، فكانت العاقبة الجوع والخوف. وهذه المقابلة تكشف أن الجحود ليس موقفًا فرديًا فقط، بل يمكن أن يكون موقفًا

جماعياً، وأن عواقبه لا تقع على الفرد وحده، بل على المجتمع كله.

المقابلة الثالثة: مقابلة الشكر بالجحود في سياق البعث والجزاء؛ في قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَنَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، يُربط العمل الصالح بالجزاء. وفي مقابل ذلك، في آيات البعث والجزاء، يُكشف عن عواقب الجحود. وهذه المقابلة تكشف أن الشكر والجحود ليسا مجرد مواقف دنيوية، بل لهما امتداد أخروي.

ووظيفة هذه المقابلات في انتظام المعاني تتجلى في ثلاثة أمور:
الأول: إبراز التناقض بين المعرفة والاستجابة؛ فالإنسان يعرف النعمة ثم ينكرها، وهذا التناقض يكشف عن خلل في الاستجابة، لا في المعرفة. وهذا الخلل هو ما تدعو السورة إلى تصحيحه.

الثاني: ربط الاستجابة بالمسؤولية؛ فالشكر ليس مجرد فضيلة اختيارية، بل هو استجابة لمقتضى التوحيد. والجحود ليس مجرد خطأ، بل هو إنكار لحقيقة التوحيد، وله عواقب دنيوية وأخروية.

الثالث: إبراز البعد الاجتماعي للاستجابة؛ فالجحود لا يقع على الفرد وحده، بل يمكن أن يقع على المجتمع كله (كما في مثل القرية). وهذا يوسع من دائرة المسؤولية، ويجعل الشكر والجحود قضيتين مجتمعتين، لا فرديتين فقط.

وهذه المقابلات لا تثبت وحدها أن الشكر أو الجحود هو المقصد الجامع للسورة، لكنها تكشف عن شبكة علاقات دلالية تنتظم بها معاني السورة، وتوفر مؤشرات لاستخلاص المقاصد في الفصل الثالث.



العلاقة بين القضايا العقدية والتوجيهات الأخلاقية والتشريعية

المحور الأول: العلاقة بين أصول الاعتقاد والتوجيهات العملية

تقيم سورة النحل علاقة عضوية بين أصول الاعتقاد والتوجيهات العملية، لا علاقة إضافية خارجية؛ فالتوجيهات الأخلاقية والتشريعية لا تأتي بوصفها إضافة على العقيدة، بل بوصفها ثمرة طبيعية لها، ومقتضى عملياً يترتب عليها. وهذه العلاقة تظهر في السورة بصور متعددة:

الصورة الأولى: الانتقال من تقرير التوحيد إلى تقرير المسؤولية الأخلاقية؛ فبعد عرض أدلة التوحيد والنعم والوحي والبعث، ينتقل السياق إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُم لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]. وهذا الانتقال ليس انفصلاً عن العقيدة، بل هو ثمرة لها: فمن آمن بالله وحده، وصدق وحيه، وآمن ببعثه وجزائه، كان مقتضى ذلك أن يلتزم بالعدل والإحسان، وينتهي عن الفحشاء والمنكر والبغي.

الصورة الثانية: ربط الأحكام التشريعية بالتوحيد؛ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [النحل: ١١٥]، تُربط الأحكام التشريعية بالتوحيد من خلال ذكر ما أهل لغير الله. وهذا الربط يكشف أن التشريع

ليس مجرد تنظيم دنيوي، بل هو تعبير عن التوحيد في مجال السلوك.

الصورة الثالثة: ربط الوفاء بالعهد بالمسؤولية أمام الله؛ في قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٩١]، يُربط الوفاء بالعهد بمسؤولية الإنسان أمام الله. وهذا الربط يكشف أن الأخلاق لا تقوم على مجرد المصلحة الاجتماعية، بل على الوعي بحضور الله ورقابته.

الصورة الرابعة: ربط الدعوة بالحكمة والصبر بالتوحيد؛ في قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، تُربط الدعوة بالحكمة. وفي قوله: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧]، يُربط الصبر بالتوكل على الله. وهذا الربط يكشف أن الأخلاق الدعوية لا تنفصل عن العقيدة، بل تستمد منها قوتها ووجهتها.

وهذه الصور الأربع تكشف أن العلاقة بين العقيدة والعمل في السورة ليست علاقة إضافة، بل علاقة تلازم: فالعقيدة تُنتج العمل، والعمل يعبر عن العقيدة. وهذا التلازم يخدم البناء الكلي للسورة؛ لأنه يمنع من فصل القضايا العقدية عن التوجيهات العملية، ويجعل السورة بناءً متكاملًا لا أجزاء منفصلة.

غير أن هذا التلازم لا ينبغي أن يُفهم بوصفه تحديدًا للمقصد الجامع للسورة؛ فقد تكون العلاقة بين العقيدة والعمل وسيلة

لتحقيق مقصد أوسع، أو نتيجة مترتبة على التوحيد. وتحديد
موقعها في البناء الكلي يحتاج إلى ترجيح في ضوء مجموع
المقاطع.



المحور الثاني: وظائف الأحكام والتوجيهات الأخلاقية في سياق السورة

لا تقتصر وظائف الأحكام والتوجيهات الأخلاقية في سورة النحل على تنظيم السلوك الدنيوي، بل تمتد إلى تحقيق وظائف متعددة في البناء الكلي للسورة. ويمكن رصد أربع وظائف رئيسية:

الوظيفة الأولى: ترجمة العقيدة إلى سلوك؛ فالأحكام والتوجيهات الأخلاقية ليست مجرد قواعد مجردة، بل هي ترجمة عملية لما تقرره السورة من عقيدة؛ فالعدل والإحسان [النحل: ٩٠] ترجمة عملية للإيمان بالله وحده. والوفاء بالعهد [النحل: ٩١] ترجمة عملية للوعي بحضور الله. وهذه الوظيفة تخدم البناء الكلي؛ لأنها تمنع من فصل العقيدة عن الحياة.

الوظيفة الثانية: نقد الممارسات الباطلة؛ فالأحكام المتعلقة بالحلال والحرام [النحل: ١١٥-١١٧] لا تكتفي ببيان الحكم، بل تنقد الممارسات التي تنسب إلى الله ما لم يأذن به. وهذا النقد يخدم البناء الكلي؛ لأنه يربط بين التوحيد وتصحيح التصورات الدينية.

الوظيفة الثالثة: بناء المجتمع المسلم؛ فالأحكام الاجتماعية (العدل، الإحسان، الوفاء بالعهد) لا تنظم علاقة الفرد بربه فقط، بل تنظم علاقات الناس بعضهم ببعض. وهذا يخدم البناء الكلي؛ لأن السورة لا تقتصر على بناء الفرد، بل تسعى إلى بناء المجتمع.

الوظيفة الرابعة: توجيه الدعوة؛ فآيات الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة [النحل: ١٢٥] لا توجه الفرد فقط، بل توجه الداعية إلى كيفية تبليغ الرسالة. وهذا يخدم البناء الكلي؛ لأن السورة لا تقتصر على تقرير الحق، بل تسعى إلى تبليغه. وهذه الوظائف الأربع تكشف أن الأحكام والتوجيهات الأخلاقية ليست مجرد ملحقات بالسورة، بل عناصر أساسية في بنائها. وهي تخدم البناء الكلي من زوايا متعددة: ترجمة العقيدة إلى سلوك، ونقد الممارسات الباطلة، وبناء المجتمع، وتوجيه الدعوة. وهذا التنوع في الوظائف يمنع من اختزالها في وظيفة واحدة، ويحفظ لكل مجموعة من الأحكام خصوصيتها في البناء.



المحور الثالث: إسهام التوجيهات العملية في بيان العلاقات بين موضوعات السورة

لا تقتصر وظيفة التوجيهات العملية على تنظيم السلوك، بل تمتد إلى إسهامها في بيان العلاقات بين موضوعات السورة؛ فالتوجيهات العملية تعمل كجسر يربط بين القضايا العقدية من جهة، والسلوك الإنساني من جهة أخرى، وتسهم في الكشف عن العلاقات بين الموضوعات التي قد تبدو منفصلة.

الإسهام الأول: الربط بين التوحيد والأخلاق؛ فالتوجيهات الأخلاقية [النحل: ٩٠] تربط بين التوحيد (الذي قُرر في المقاطع السابقة) والسلوك (الذي سَيُفَصَّل في المقاطع اللاحقة). وهذا الربط يكشف أن التوحيد ليس مفهوماً مجرداً، بل هو أساس للأخلاق.

الإسهام الثاني: الربط بين النعم والمسؤولية؛ فالتوجيهات المتعلقة بالحلال والحرام [النحل: ١١٥-١١٧] تربط بين النعم (التي عُرضت في المقاطع السابقة) والمسؤولية (التي تقتضيها). وهذا الربط يكشف أن النعم ليست مجرد منافع، بل هي أمانة تستوجب المسؤولية.

الإسهام الثالث: الربط بين البعث والجزاء والسلوك؛ فالتوجيهات المتعلقة بالوفاء بالعهد [النحل: ٩١] تربط بين البعث والجزاء (الذي قُرر في المقطع السابق) والسلوك (الذي يُطلب في الدنيا). وهذا الربط يكشف أن السلوك الدنيوي ليس منفصلاً عن الجزاء الأخروي.

الإسهام الرابع: الربط بين الوحي والدعوة؛ فآيات الدعوة بالحكمة [النحل: ١٢٥] تربط بين الوحي (الذي قُرر في المقاطع السابقة) والدعوة (التي تُطلب من المؤمن). وهذا الربط يكشف أن الوحي ليس مجرد خبر، بل هو رسالة تستوجب التبليغ. وهذه الإسهامات الأربعة تكشف أن التوجيهات العملية ليست مجرد إضافة على موضوعات السورة، بل هي عنصر يربط بينها ويسهم في بنائها الكلي. وبدون هذه التوجيهات، قد تبدو موضوعات السورة منفصلة: عقيدة، ونعم، ووحى، وبعث، وأخلاق. لكن مع هذه التوجيهات، تتضح العلاقات بينها: العقيدة أساس للأخلاق، والنعم أمانة تستوجب المسؤولية، والبعث يوجب الالتزام، والوحى يستوجب الدعوة. وهذا الإسهام لا يثبت وحده أن الأخلاق أو الدعوة هي المقصد الجامع للسورة، لكنه يكشف عن شبكة علاقات دلالية تنتظم بها معاني السورة، وتوفر مؤشرات لاستخلاص المقاصد في الفصل الثالث.

وظائف العناصر المميزة في بناء العلاقات الموضوعية

المحور الأول: وظائف الأمثال، ومنها مثل العبد المملوك والأبكم، في الاستدلال وتوضيح المعاني

تُعدّ الأمثال من العناصر المميزة في سورة النحل، وتؤدي وظائف متعددة في الاستدلال وتوضيح المعاني. ويمكن رصد ثلاث وظائف رئيسية:

الوظيفة الأولى: تقريب المعاني المجردة؛ فالمثل في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٥] يقرب معنى التفاوت بين الله والعبد؛ فالمثل يضع المشهد أمام المتلقي: عبد مملوك لا يقدر على شيء، مقابل من رزقه الله رزقًا حسنًا فهو ينفق منه. والسؤال: هل يستوون؟ والجواب المنطقي: لا. ومن ثم، فكيف يُسوَّى بين الله الخالق الرازق، والعبد المخلوق؟ وهذا التقريب يجعل المعنى المجرد (التفاوت بين الخالق والمخلوق) محسوسًا.

الوظيفة الثانية: كشف التناقض في موقف المشركين؛ فالمثل الثاني في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٦] يكشف تناقضًا آخر: رجل أبكم لا يقدر

على شيء، مقابل من يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم. والسؤال: هل يستويان؟ والجواب: لا. ومن ثم، فكيف يُسوَّى بين الأصنام التي لا تسمع ولا تنطق ولا تنفع، وبين الله الذي يأمر بالعدل ويهدي إلى الصراط المستقيم؟ وهذا الكشف للتناقض يخدم الاستدلال؛ لأنه لا يكتفي بتقرير التفاوت، بل يكشف عن تناقض موقف من يسوي بين المختلفين.

الوظيفة الثالثة: إبطال التسوية بين الخالق والمخلوق؛ فالمثالان معًا [النحل: ٧٥-٧٦] يبطلان التسوية بين الله وما يُعبد من دونه. وقد ذكر شهيد القرآن أن هذين المثليين يختمان شوطًا في قضية الألوهية الواحدة، ويستدلان على بطلان التسوية بين الله والأصنام (١). وهذا الإبطال لا يقف عند حد التقرير، بل يمتد إلى إقناع المتلقي بفساد موقفه.

وهذه الوظائف الثلاث تكشف أن الأمثال في السورة ليست مجرد زخرفة بلاغية، بل هي أدوات استدلالية تؤدي وظائف متعددة: تقريب المعاني المجردة، وكشف التناقض، وإبطال التسوية. وهي بذلك تسهم في بناء العلاقات الموضوعية؛ لأنها تربط بين القضايا العقدية (التوحيد والشرك) والمشاهد المحسوسة (العبد المملوك والأبكم)، وتجعل المعنى المجرد قابلاً للفهم والاستدلال.

غير أن وظيفة الأمثال لا تتوقف عند الاستدلال، بل تمتد إلى توضيح المعاني؛ فالمثل في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَّضْتُ عَنْهُمْ مِيثَاقَهُمْ فِي قَوْلِهِمْ كُنَّا آلَ اللَّهِ فَنَقَّضْنَاهُمْ وَأَنكَرُوا بَأْسَ اللَّهِ فَهَمَزُوا لَكُمْ كِتَابَ اللَّهِ فَتَقَالُوا سَاءَ مَا يَحْكُمُ اللَّهُ وَأَنكَرُوا بَأْسَ اللَّهِ فَهَمَزُوا لَكُمْ كِتَابَ اللَّهِ فَتَقَالُوا سَاءَ مَا يَحْكُمُ اللَّهُ﴾ [النحل: ٩٢] يوضح معنى

نقض العهد بصورة محسوسة: امرأة نقضت غزلها بعد أن
أحكمته. وهذا التوضيح يجعل المعنى المجرد (نقض العهد)
قابلاً للتصور والتأثر.



المحور الثاني: دلالات الخطاب المتعلق بإبراهيم عليه السلام في سياق التوحيد والشكر

يحتل الخطاب المتعلق بإبراهيم عليه السلام موقعًا مميزًا في سورة النحل، ويؤدي وظائف متعددة في بناء العلاقات الموضوعية. ويمكن رصد ثلاث دلالات رئيسية:

الدلالة الأولى: تقديم إبراهيم بوصفه نموذجًا للتوحيد؛ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]، يُقدّم إبراهيم بوصفه نموذجًا للتوحيد الخالص. ووصفه بأنه "أمة" يدل على أنه كان وحده أمة في التوحيد، و"قانتًا" يدل على الطاعة والخشوع، و"حنيفًا" يدل على الميل عن الشرك إلى التوحيد. وهذا النموذج يخدم البناء الكلي؛ لأنه يقدم مثالًا حيًا للتوحيد الذي تدعو إليه السورة.

الدلالة الثانية: ربط إبراهيم بالشكر؛ في قوله تعالى: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢١]، يُربط إبراهيم بالشكر. وهذا الربط يكشف أن التوحيد ليس مجرد إقرار، بل هو شكر عملي. وإبراهيم، بوصفه نموذجًا للتوحيد، هو أيضًا نموذج للشكر. وهذا يخدم البناء الكلي؛ لأنه يربط بين التوحيد (الذي قُرّر في المقاطع السابقة) والشكر (الذي دُعي إليه في مقاطع النعم).

الدلالة الثالثة: ربط إبراهيم بالأمر باتباع ملته؛ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنْ

الْمُشْرِكِينَ ﴿ [النحل: ١٢٣]، يُربط إبراهيم بالأمر باتباع ملته. وهذا الربط يكشف أن إبراهيم ليس مجرد نموذج تاريخي، بل هو نموذج يُقتدى به. والأمر باتباع ملته يخدم البناء الكلي؛ لأنه يربط بين التوحيد (الذي دُعي إليه إبراهيم) والتوحيد (الذي تدعو إليه السورة).

وهذه الدلالات الثلاث تكشف أن الخطاب المتعلق بإبراهيم ليس مجرد ذكر تاريخي، بل هو عنصر وظيفي في بناء العلاقات الموضوعية؛ فإبراهيم يقدم نموذجًا للتوحيد والشكر، ويُربط بالأمر باتباع ملته. وهو بذلك يسهم في ربط موضوعات السورة: التوحيد (الذي قُرر في المقاطع السابقة)، والشكر (الذي دُعي إليه في مقاطع النعم)، والاقتداء (الذي يُطلب من المؤمن). غير أن وظيفة الخطاب الإبراهيمي لا تتوقف عند هذا الربط، بل تمتد إلى نقد الشرك؛ فوصف إبراهيم بأنه "لم يك من المشركين" [النحل: ١٢٠] يكشف أن التوحيد الذي دُعي إليه إبراهيم هو نقيض الشرك. وهذا النقد يخدم البناء الكلي؛ لأنه يربط بين التوحيد (الذي دُعي إليه إبراهيم) ونقد الشرك (الذي ورد في مقاطع متعددة).

المحور الثالث: تكامل الأمثال والخطاب الإبراهيمي

مع موضوعات السورة الأخرى

لا تؤدي الأمثال والخطاب الإبراهيمي وظائفها في عزلة عن موضوعات السورة الأخرى، بل تتكامل معها في بناء العلاقات الموضوعية. ويمكن رصد ثلاثة مستويات للتكامل:

المستوى الأول: التكامل مع موضوع التوحيد؛ ف الأمثال [النحل: ٧٥-٧٦] تبطل التسوية بين الخالق والمخلوق، والخطاب الإبراهيمي [النحل: ١٢٠-١٢٣] يقدم نموذجًا للتوحيد. وكلاهما يخدم موضوع التوحيد (الذي قُرر في المقاطع السابقة) من زاوية مختلفة: الأمثال من زاوية الاستدلال العقلي، والخطاب الإبراهيمي من زاوية النموذج الحي.

المستوى الثاني: التكامل مع موضوع النعم والشكر؛ ف الخطاب الإبراهيمي يربط إبراهيم بالشكر [النحل: ١٢١]، وهذا يخدم موضوع الشكر (الذي دُعي إليه في مقاطع النعم). والأمثال لا ترتبط مباشرة بموضوع الشكر، لكنها تسهم في بناء التصور التوحيدي الذي يقتضي الشكر.

المستوى الثالث: التكامل مع موضوع نقد الشرك؛ ف الأمثال تبطل التسوية بين الخالق والمخلوق، والخطاب الإبراهيمي يصف إبراهيم بأنه "لم يك من المشركين". وكلاهما يخدم نقد الشرك (الذي ورد في مقاطع متعددة) من زاوية مختلفة: الأمثال من زاوية الاستدلال، والخطاب الإبراهيمي من زاوية النموذج.

وهذا التكامل يكشف أن الأمثال والخطاب الإبراهيمي ليسا عنصرين منفصلين، بل هما جزء من شبكة علاقات تنتظم بها معاني السورة. وهما يسهمان في بناء العلاقات الموضوعية من خلال:

- ربط القضايا العقدية بالمشاهد المحسوسة (كما في الأمثال).
- تقديم نماذج حية للتوحيد والشكر (كما في الخطاب الإبراهيمي).
- نقد الشرك من زوايا متعددة (كما في الأمثال والخطاب الإبراهيمي معًا).

غير أن هذا التكامل لا يثبت وحده أن الأمثال أو الخطاب الإبراهيمي هو المقصد الجامع للسورة؛ فهو يكشف عن شبكة علاقات دلالية، لكنه لا يحدد المقصد الجامع. وتحديد المقصد الجامع يحتاج إلى ترجيح في ضوء مجموع المقاطع، لا إلى استنتاج من تكامل عنصرين أو أكثر.

العلاقة بين افتتاح السورة وخاتمتها ودلالاتها على وحدة البناء الموضوعي المحور الأول: دلالة افتتاح السورة على القضايا المتكررة في مقاطعها

يمكننا الآن فحص العلاقة بين الافتتاح والخاتمة بوصفها قرينة على وحدة البناء الموضوعي. والسؤال المنهجي هنا: هل تكشف العلاقة بين المطلع والخاتمة عن انسجام في البناء الموضوعي للسورة؟

للإجابة عن هذا السؤال، يلزم أولاً رصد القضايا التي يثيرها الافتتاح، ثم فحص حضورها في الخاتمة:

القضية الأولى: سلطان الله ونفاذ أمره. يثير الافتتاح هذه القضية في قوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]. وفي الخاتمة، نجد قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]. والعلاقة بينهما: الافتتاح يقرر سلطان الله، والخاتمة تقرر معية الله للمتقين المحسنين. وهذا الربط يكشف أن سلطان الله ليس سلطاناً مجرداً، بل هو سلطان يقترن بالمعية لمن أطاع.

القضية الثانية: التوحيد وتنزيه الله عن الشرك. يثير الافتتاح هذه القضية في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١]. وفي الخاتمة، نجد الثناء على إبراهيم الذي "لم يك من المشركين" [النحل: ١٢٠]، والأمر باتباع ملته [النحل: ١٢٣]. والعلاقة بينهما: الافتتاح ينزه الله عن الشرك، والخاتمة

تقدم نموذجًا للتوحيد (إبراهيم) وتأمّر باتباعه. وهذا الربط يكشف أن التوحيد ليس مجرد تنزيه نظري، بل هو نموذج حياة يُقتدى به.

القضية الثالثة: الوحي ومصدر الهداية. يثير الافتتاح هذه القضية في قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ [النحل: ٢]. وفي الخاتمة، نجد الأمر بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة [النحل: ١٢٥]، والصبر [النحل: ١٢٧]. والعلاقة بينهما: الافتتاح يقرر مصدر الوحي، والخاتمة توجه إلى تبليغه بالحكمة والصبر. وهذا الربط يكشف أن الوحي ليس مجرد خبر، بل هو رسالة تستوجب التبليغ.

القضية الرابعة: النعم والاستدلال بها. يثير الافتتاح هذه القضية من خلال ذكر الخلق والإنعام في الآيات الأولى. وفي الخاتمة، نجد الثناء على إبراهيم الذي كان "شاكراً لأنعمه" [النحل: ١٢١]. والعلاقة بينهما: الافتتاح يعرض النعم، والخاتمة تقدم نموذجاً للشكر (إبراهيم). وهذا الربط يكشف أن النعم ليست مجرد منافع، بل هي مجال للشكر.

وهذه القضايا الأربع تكشف أن الافتتاح والخاتمة ليسا مجرد إطار شكلي، بل هما عنصران في بناء موضوعي متماسك؛ فالافتتاح يثير القضايا، والخاتمة تعيد صياغتها في ضوء النموذج الإبراهيمي والدعوة والصبر. وهذا الانسجام يشير إلى وحدة بناء موضوعي، لكنه لا يثبتها بالكامل؛ لأن الوحدة تحتاج إلى فحص العلاقات بين جميع المقاطع، لا فقط بين المطلع والخاتمة.

المحور الثاني: موقع خاتمة السورة في ضوء

موضوعاتها وتوجيهاتها السابقة

لا تقتصر وظيفة الخاتمة على إعادة صياغة قضايا الافتتاح، بل تمتد إلى تلخيص موضوعات السورة وتوجيهاتها السابقة، وإعادة ربطها في بناء كلي. ويمكن رصد ثلاث وظائف للخاتمة: **الوظيفة الأولى: تلخيص موضوعات السورة؛ فخاتمة السورة [النحل: ١٢٠-١٢٨] تجمع بين:**

- الثناء على إبراهيم (الذي يجسد التوحيد والشكر).
- الأمر باتباع ملته (الذي يربط بين التوحيد والاقتداء).
- الأمر بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة (الذي يربط بين الوحي والتبليغ).
- الأمر بالصبر (الذي يربط بين الدعوة والثبات).
- وعد الله للمتقين المحسنين (الذي يربط بين السلوك والجزاء).

وهذا التلخيص لا يقتصر على جمع الموضوعات، بل يعيد ربطها في بناء كلي: التوحيد (إبراهيم) → الاقتداء (اتباع ملته) → الدعوة (بالحكمة) → الصبر (على الدعوة) → الجزاء (معية الله للمتقين). وهذا البناء يكشف أن الخاتمة ليست مجرد ختام، بل هي إعادة صياغة للسورة في ضوء غايتها.

الوظيفة الثانية: توجيه المؤمن إلى مقتضيات الإيمان؛ فخاتمة السورة لا تكتفي بتلخيص الموضوعات، بل توجه المؤمن إلى مقتضيات الإيمان: اتباع ملة إبراهيم، والدعوة

بالحكمة، والصبر. وهذا التوجيه يخدم البناء الكلي؛ لأنه يحول العقيدة إلى عمل، ويمنع من فصل الإيمان عن السلوك.

الوظيفة الثالثة: ربط الجزاء بالسلوك؛ فخاتمة السورة تختتم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]. وهذا الربط يكشف أن الجزاء ليس مجرد ثواب أخروي، بل هو معية إلهية في الدنيا والآخرة. وهذا يخدم البناء الكلي؛ لأنه يربط بين السلوك (التقوى والإحسان) والجزاء (المعية).

وهذه الوظائف الثلاث تكشف أن الخاتمة ليست مجرد ختام شكلي، بل هي عنصر في بناء موضوعي متماسك. وهي تعيد صياغة موضوعات السورة في ضوء غايتها، وتوجه المؤمن إلى مقتضيات الإيمان، وتربط الجزاء بالسلوك.

المحور الثالث: ما تكشف عنه العلاقة بين المطلع

والخاتمة من انسجام في البناء الموضوعي

بعد فحص دلالة الافتتاح على القضايا المتكررة، وموقع الخاتمة في ضوء موضوعات السورة، يمكن الآن الإجابة عن السؤال المنهجي: هل تكشف العلاقة بين المطلع والخاتمة عن انسجام في البناء الموضوعي للسورة؟

الجواب: العلاقة بين المطلع والخاتمة تكشف عن انسجام جزئي في البناء الموضوعي، وليس انسجامًا كاملاً. وبيان ذلك: أولاً: الانسجام في القضايا الكبرى؛ فافتتاح والخاتمة يشتركان في إثارة القضايا الكبرى: سلطان الله، والتوحيد، والوحي، والنعم. وهذا الاشتراك لا يعني التطابق، بل يعني أن الخاتمة تعيد صياغة القضايا التي أثارها الافتتاح في ضوء النموذج الإبراهيمي والدعوة والصبر. وهذا الانسجام يشير إلى وجود خيط ناظم يربط بين بداية السورة ونهايتها.

ثانياً: الانسجام في البناء الحجاجي؛ فافتتاح يبدأ بتقرير سلطان الله وتنزيهه عن الشرك، ثم تعرض السورة أدلة التوحيد والنعم والوحي والبعث، ثم تنقد الشرك والجحود، ثم توجه إلى الأخلاق والتشريع، ثم تختتم بالثناء على إبراهيم والأمر بالدعوة والصبر. وهذا البناء الحجاجي يكشف عن انسجام في الانتقال من التقرير إلى الاستدلال إلى النقد إلى التوجيه إلى الخاتمة.

ثالثاً: حدود الانسجام. غير أن هذا الانسجام لا يعني أن كل مقطع في السورة يخدم المقصد نفسه؛ فالسورة تتضمن مقاطع

ذات وظائف متعددة: مقاطع النعم (التي تؤدي وظائف استدلالية وتذكيرية)، ومقاطع التشريع (التي تؤدي وظائف عملية)، ومقاطع الأمثال (التي تؤدي وظائف استدلالية)، ومقاطع الخطاب الإبراهيمي (التي تؤدي وظائف نموذجية). هذه المقاطع لا تُختزل جميعها في علاقة واحدة مع الافتتاح والخاتمة، بل لكل منها وظيفته الخاصة في البناء.

رابعاً: الانسجام لا يثبت الوحدة المقاصدية؛ فالانسجام بين المطلع والخاتمة لا يثبت بالضرورة أن السورة ذات مقصد جامع واحد؛ فقد يكون الانسجام انسجاماً في البناء الحجاجي، دون أن يكون انسجاماً في المقصد. وإثبات الوحدة المقاصدية يحتاج إلى استخلاص المقاصد وترجيحها في الفصل الثالث، لا إلى استنتاج من العلاقة بين المطلع والخاتمة.

وعليه، فإن العلاقة بين المطلع والخاتمة تكشف عن انسجام جزئي في البناء الموضوعي، وتوفر قرينة على وجود خيط ناظم يربط بين بداية السورة ونهايتها. لكنها لا تثبت وحدها أن السورة ذات وحدة موضوعية مقصودة، ولا تحدد المقصد الجامع. وهذا الانسجام الجزئي يُعدّ مؤشرًا يستحق الترجيح في الفصل الثالث، لا نتيجة نهائية.

الهوامش

- (1) قطب، سيد؛ في ظلال القرآن، ج ٤، ص ٢١٨٤ (تفسير الآيات ٧٥-٧٦، المثلان).
- (2) ابن عاشور، محمد الطاهر. التحرير والتنوير، تفسير سورة النحل، الآيات ٧٥-٧٦، ٩٢، ١٢٠-١٢٣.
- (3) الطبري، محمد بن جرير. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تفسير سورة النحل، الآيات ٧٥-٧٦، ٩٢، ١٢٠-١٢٣.

(4) القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري. الجامع لأحكام القرآن، تفسير سورة النحل، الآيات ٧٥-٧٦، ٩٢، ١٢٠-١٢٣.

(5) السعدي، عبد الرحمن بن ناصر. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تفسير سورة النحل، الآيات ٧٥-٧٦، ٩٢، ١٢٠-١٢٣.



استخلاص مقاصد سورة النحل والمقصد الجامع لها والترجيح بينها المحور الأول: استقراء المقاصد العقدية والإيمانية المرشحة

يقتضي استقراء المقاصد العقدية والإيمانية المرشحة في سورة النحل الانتقال من رصد المؤشرات الدلالية إلى صياغة معانٍ كلية قابلة للاستنباط. ولا يعني هذا الانتقال أن المقاصد قد ثبتت، بل يعني أن الدلالات التي رُصدت أصبحت مرشحة لدرجة أعلى من التحليل، تخضع فيها لمعايير الاستقلال والشمول والاتساق السياقي والقدرة التفسيرية. ويمكن استقراء ستة مقاصد عقدية وإيمانية مرشحة من مجموع تحليل السورة:

المقصد الأول: تقرير الألوهية وتنزيه الله عن الشرك. يظهر هذا المعنى في افتتاح السورة: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١]، ويتكرر في مواضع متعددة، كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٣]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [النحل: ٢٠]. ويستند ترشيح هذا المقصد إلى تكراره في سياقات متعددة، واتساقه مع البناء الحجاجي للسورة، وقدرته على تفسير كثير من المقاطع التي تعرض أدلة التوحيد أو تنقد الشرك.

المقصد الثاني: تقرير الوحي ومصدر الهداية. يظهر هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿يُرْسِلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [النحل: ٢]، وفي قوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢]، وفي قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]. ويستند ترشيحه إلى ارتباطه بمقصد الألوهية (فالوحي يبلغ أمر الله)، وإلى حضوره في مقاطع متعددة تواجه شبهات المكذبين وتقرر وظيفة الرسالة.

المقصد الثالث: تقرير البعث والجزاء والمسؤولية. يظهر هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [النحل: ٣٨]، وفي قوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾ [النحل: ٧٧]، وفي قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]. ويستند ترشيحه إلى حضوره في مقاطع متعددة، وارتباطه بالمسؤولية الأخلاقية، وقدرته على تفسير العلاقة بين السلوك الدنيوي والجزاء الآخروي.

المقصد الرابع: تذكير الإنسان بالنعم واستدعاء الشكر. يظهر هذا المعنى في مقاطع النعم المتعددة [النحل: ٥-١٨، ٦٦-٦٩، ٧٠-٨٣]، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤]، وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٧].

[٧٨]. ويستند ترشيحه إلى اتساع مساحة النعم في السورة، وارتباطها بالتوحيد من جهة، وبالمسؤولية من جهة أخرى.

المقصد الخامس: مواجهة الجحود والإنكار. يظهر هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [النحل: ٨٣]، وفي مثل القرية التي كفرت بأنعم الله [النحل: ١١٢]، وفي مقاطع متعددة تواجه إنكار المكذبين للوحي والبعث. ويستند ترشيحه إلى ارتباطه الوثيق بمقصد الشكر (فالجحود نقيض الشكر)، وإلى حضوره في سياقات متعددة.

المقصد السادس: هداية الإنسان إلى الصراط المستقيم. يظهر هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ [النحل: ٩]، وفي قوله: ﴿وَاجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢١]، وفي توجيه الدعوة إلى سبيل الله [النحل: ١٢٥]. ويستند ترشيحه إلى ارتباطه بالوحي (فالهداية تأتي من الوحي)، وإلى حضوره في افتتاح السورة وخاتمها.

وهذه المقاصد الستة ليست متساوية في الدرجة، ولا هي منفصلة بعضها عن بعض؛ فبعضها قد يكون أصلاً، وبعضها قد يكون تابعاً، وبعضها قد يكون وسيلة أو نتيجة. والمطلوب ترجيح هذه المقاصد لتمييز المستقل منها من التابع، والوسيلة من الغاية.

المحور الثاني: استقراء المقاصد الأخلاقية

والتشريعية والتربوية المرشحة

إلى جانب المقاصد العقدية والإيمانية، يمكن استقراء مقاصد أخلاقية وتشريعية وتربوية مرشحة من سورة النحل. وهذه المقاصد لا تنفصل عن المقاصد العقدية، بل ترتبط بها ارتباطًا وثيقًا، غير أنها تتميز بكونها تتعلق بالسلوك العملي والتوجيه التربوي.

المقصد السابع: تقرير العدل والإحسان والوفاء بالعهد. يظهر هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل: ٩٠]، وفي قوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ [النحل: ٩١]. ويستند ترشيحه إلى وضوح النص في الأمر بهذه القيم، وإلى ارتباطها بالمسؤولية أمام الله.

المقصد الثامن: ضبط الحلال والحرام بالوحي. يظهر هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ [النحل: ١١٦]، وفي قوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنَزِيرِ﴾ [النحل: ١١٥]. ويستند ترشيحه إلى ارتباطه بالتوحيد (فالتشريع حق لله وحده)، وإلى حضوره في سياق نقد الممارسات الباطلة.

المقصد التاسع: توجيه الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة. يظهر هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ

بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴿ [النحل: ١٢٥]. ويستند ترشيحه إلى وضوح النص، وإلى ارتباطه بوظيفة الرسالة (التبليغ).

المقصد العاشر: الصبر والثبات على الحق. يظهر هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧]، وفي خاتمة السورة: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]. ويستند ترشيحه إلى ارتباطه بالدعوة (فالدعوة تحتاج إلى صبر)، وإلى حضوره في خاتمة السورة.

المقصد الحادي عشر: الاقتداء بإبراهيم عليه السلام. يظهر هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٠]، وفي قوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣]. ويستند ترشيحه إلى وضوح النص، وإلى ارتباطه بالتوحيد والشكر.

وهذه المقاصد الخمسة (السابع إلى الحادي عشر) ترتبط بالمقاصد العقدية ارتباطًا وثيقًا، غير أنها تتميز بكونها تتعلق بالسلوك العملي.

المحور الثالث: تصنيف المقاصد المرشحة بحسب

طبيعتها ووظيفتها والأدلة المؤيدة لها

بعد استقراء المقاصد المرشحة، يلزم تصنيفها بحسب طبيعتها ووظيفتها والأدلة المؤيدة لها، لتسهيل ترجيحها هنا.

أولاً: التصنيف بحسب الطبيعة:

النوع	المقاصد
عقدية	تقرير الألوهية، تقرير الوحي، تقرير البعث والجزاء
إيمانية	تذكير بالنعم واستدعاء الشكر، مواجهة الجحود، هداية الإنسان
أخلاقية	العدل والإحسان والوفاء بالعهد، الصبر والثبات
تشريعية	ضبط الحلال والحرام بالوحي
تربوية	توجيه الدعوة بالحكمة، الاقتداء بإبراهيم

ثانياً: التصنيف بحسب الوظيفة الأولية:

الوظيفة	المقاصد
أصول (غايات كبرى)	تقرير الألوهية، تقرير الوحي، تقرير البعث
وسائل	الاقتداء بإبراهيم، توجيه الدعوة بالحكمة
نتائج مترتبة	الشكر، العدل والإحسان، الصبر
مقاومات (نقدية)	مواجهة الجحود والشرك

ثالثاً: التصنيف بحسب قوة الأدلة:

المقاصد	درجة الدليل
تقرير الألوهية، تقرير الوحي، تقرير البعث، العدل والإحسان، الدعوة بالحكمة	قوية (نصوص صريحة متعددة)
الشكر، الوفاء بالعهد، ضبط الحلال والحرام، الصبر	متوسطة (نصوص صريحة لكنها محدودة)
هداية الإنسان، الاقتداء بإبراهيم، مواجهة الجحود	محتملة (تحتاج إلى استدلال أوسع)

استخلاص المقاصد المرشحة وتقويمها

المحور الأول: التمييز بين المقاصد المستقلة

والمقاصد التابعة والوسائل والأدلة والنتائج

يقتضي استخلاص المقاصد المرشحة التمييز بين أربعة مستويات: المقاصد المستقلة، والمقاصد التابعة، والوسائل والأدلة، والنتائج.

المستوى الأول: المقاصد المستقلة. هي الغايات التي تسعى السورة إلى تحقيقها لذاتها، ويمكن الاستدلال عليها بنصوص متعددة، وتفسر جانبًا معتبرًا من بناء السورة. وبعد فحص المقاصد المرشحة في ضوء مجموع السورة، يمكن ترشيح ثلاثة مقاصد لتكون مستقلة:

أ. **تقرير الألوهية وتنزيه الله عن الشرك.** يستند هذا المقصد إلى نصوص متعددة [النحل: ١، ٣، ١٧، ٢٠-٢١، ٥١، ٧٤]، ويفسر كثيرًا من المقاطع التي تعرض أدلة التوحيد أو تنقد الشرك. وهو مقصد مستقل، لأنه غاية تسعى السورة إليها لذاتها، لا وسيلة لغيره.

ب. **تقرير الوحي ومصدر الهداية.** يستند إلى نصوص متعددة [النحل: ٢، ٤٣-٤٤، ٨٩، ١٠٢، ١٠٥]، ويفسر مقاطع النبوة والرسالة. وهو مقصد مستقل، لأنه غاية تسعى السورة إليها لذاتها.

ج. **تقرير البعث والجزاء والمسؤولية.** يستند إلى نصوص متعددة [النحل: ٣٨-٣٩، ٧٧، ٨٤-٨٩، ٩٧، ١١٠]، ويفسر

مقاطع البعث والجزاء. وهو مقصد مستقل، لأنه غاية تسعى السورة إليها لذاتها.

المستوى الثاني: المقاصد التابعة. هي الغايات التي ترتبط بمقصد مستقل ارتباطًا وثيقًا، ولا تُعدّ غايات مستقلة بذاتها، بل تُفهم في ضوء المقصد المستقل. وبعد الفحص، يمكن ترشيح مقصدين لتكون تابعة:

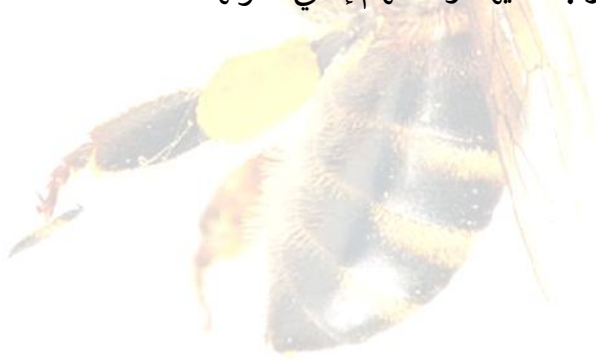
أ. **تذكير الإنسان بالنعم واستدعاء الشكر.** يرتبط هذا المقصد بمقصد تقرير الألوهية؛ فالنعم أدلة على الألوهية، والشكر استجابة لمقتضاها. وهو مقصد تابع، لأنه لا يُفهم إلا في ضوء مقصد الألوهية.

ب. **مواجهة الجحود والإنكار.** يرتبط هذا المقصد بمقصد تقرير الألوهية والبعث؛ فالجحود إنكار لحقيقة الألوهية، والإنكار يستوجب الجزاء. وهو مقصد تابع، لأنه نقد لما يناقض المقاصد الأصلية.

المستوى الثالث: الوسائل والأدلة. هي العناصر التي تستخدمها السورة لتحقيق مقاصدها، ولا تُعدّ غايات بذاتها. ومنها:

- **الأمثال [النحل: ٧٥-٧٦، ٩٢]:** وسيلة استدلالية لتقريب المعاني وإبطال التسوية.
- **الخطاب الإبراهيمي [النحل: ١٢٠-١٢٣]:** وسيلة لتقديم نموذج للتوحيد والشكر.
- **الاستدلال بالخلق والنعم:** وسيلة لتقرير الألوهية.

- نقد شبهات المكذبين: وسيلة لتقرير الوحي والبعث.
- المستوى الرابع: النتائج المترتبة. هي الآثار التي تترتب على تحقيق المقاصد، ولا تُعدّ مقاصد مستقلة. ومنها:
 - العدل والإحسان والوفاء بالعهد [النحل: ٩٠-٩١]:
نتيجة مترتبة على الإيمان بالألوهية والبعث.
 - الصبر والثبات [النحل: ١٢٧]: نتيجة مترتبة على الإيمان بالوحي والدعوة.
 - الدعوة بالحكمة [النحل: ١٢٥]: نتيجة مترتبة على الإيمان بالوحي ووظيفة الرسالة.
 - ضبط الحلال والحرام [النحل: ١١٥-١١٧]: نتيجة مترتبة على الإيمان بالألوهية (فالتشريع حق لله).
- وهذا التمييز لا يعني أن النتائج أقل أهمية من المقاصد، بل يعني أنها مترتبة عليها، ولا تفهم إلا في ضوءها.



المحور الثاني: فحص المقاصد المرشحة في ضوء مجموع آيات السورة ومقاطعها وسياقاتها

بعد التمييز بين مستويات المقاصد، يلزم فحص كل مقصد في ضوء مجموع السورة، للتحقق من مدى اتساقه مع السياقات، وشموله للمقاطع، وقدرته على تفسير العلاقات.

فحص المقصد الأول: تقرير الألوهية وتنزيه الله عن الشرك.

- الشمول: يظهر هذا المقصد في الافتتاح [النحل: ١]، وفي مقاطع الخلق [النحل: ٣-٦]، وفي مقاطع النعم [النحل: ١٠-٢١]، وفي مقاطع نقد الشرك [النحل: ٢٢-٥٦]، وفي مقاطع الأمثال [النحل: ٧٥-٧٦]، وفي الخاتمة [النحل: ١٢٠-١٢٣]؛ فهو شامل لمقاطع متعددة.

- الاتساق السياقي: يتسق هذا المقصد مع سياقات متعددة، سواء في سياق الاستدلال بالخلق، أو في سياق نقد الشرك، أو في سياق تقديم النماذج (إبراهيم).

- القدرة التفسيرية: يفسر هذا المقصد كثيرًا من المقاطع، لكنه لا يفسر بمفرده مقاطع التشريع والأخلاق، ولا مقاطع البعث والجزاء؛ فهو مقصد مستقل، لكنه ليس المقصد الجامع الوحيد.

فحص المقصد الثاني: تقرير الوحي ومصدر الهداية.

- الشمول: يظهر في الآية الثانية [النحل: ٢]، وفي مقاطع النبوة [النحل: ٤٣-٤٤]، وفي مقاطع الرد على المكذبين

[النحل: ١٠٢-١٠٥]، وفي الخاتمة [النحل: ١٢٥]؛ فهو شامل لمقاطع متعددة.

• **الاتساق السياقي:** يتسق مع سياقات متعددة، سواء في سياق تقرير مصدر القرآن، أو في سياق الرد على الشبهات، أو في سياق توجيه الدعوة.

• **القدرة التفسيرية:** يفسر مقاطع الوحي والنبوة، لكنه لا يفسر بمفرده مقاطع النعم والبعث والتشريع؛ فهو مقصد مستقل، لكنه ليس المقصد الجامع الوحيد.

فحص المقصد الثالث: تقرير البعث والجزاء والمسؤولية.

• **الشمول:** يظهر في مقاطع متعددة [النحل: ٣٨-٣٩، ٧٧، ٨٤-٨٩، ٩٧، ١١٠]؛ فهو شامل لمقاطع متعددة.

• **الاتساق السياقي:** يتسق مع سياقات متعددة، سواء في سياق الرد على منكري البعث، أو في سياق تقرير المسؤولية، أو في سياق ربط السلوك بالجزاء.

• **القدرة التفسيرية:** يفسر مقاطع البعث والجزاء، لكنه لا يفسر بمفرده مقاطع النعم والتشريع؛ فهو مقصد مستقل، لكنه ليس المقصد الجامع الوحيد.

فحص المقصد الرابع: تذكير الإنسان بالنعم واستدعاء الشكر (مقصد تابع).

• **الشمول:** يظهر في مقاطع النعم المتعددة [النحل: ٥-١٨، ٦٦-٦٩، ٧٠-٨٣].

• الاتساق السياقي: يتسق مع سياقات النعم، لكنه لا يتسق مع سياقات البعث والتشريع إلا من خلال ربطه بمقصد الألوهية.

• القدرة التفسيرية: يفسر مقاطع النعم، لكنه لا يفسر بمفرده مقاطع أخرى؛ فهو مقصد تابع، يُفهم في ضوء مقصد الألوهية.

فحص المقصد الخامس: مواجهة الجحود والإنكار (مقصد تابع).

• الشمول: يظهر في مقاطع متعددة [النحل: ٨٣، ١١٢، ٢٢-٥٦].

• الاتساق السياقي: يتسق مع سياقات النقد، لكنه لا يتسق مع سياقات التشريع والأخلاق.

• القدرة التفسيرية: يفسر مقاطع النقد، لكنه لا يفسر بمفرده مقاطع أخرى؛ فهو مقصد تابع، يُفهم في ضوء مقصد الألوهية والبعث.

فحص المقاصد الأخلاقية والتشريعية والتربوية (نتائج مترتبة).

• الشمول: تظهر في مقاطع محددة [النحل: ٩٠-٩١، ١١٧-١٢٥، ١٢٨-١٢٥].

• الاتساق السياقي: تتسق مع سياقات التوجيه العملي، لكنها لا تتسق مع سياقات العقيدة والنعم إلا من خلال ربطها بالمقاصد الأصلية.

• **القدرة التفسيرية:** تفسر مقاطع التوجيه، لكنها لا تفسر بمفردها مقاطع أخرى؛ فهي نتائج مترتبة، تُفهم في ضوء المقاصد الأصلية.

نتيجة الفحص: يكشف الفحص أن المقاصد الثلاثة الأولى (الألوهية، الوحي، البعث) هي **مقاصد مستقلة**، تشمل مقاطع متعددة، وتتسق مع سياقات متعددة، وتفسر جوانب معتبرة من البناء. أما المقصدان الرابع والخامس (النعم/الشكر، الجحود) فهما **مقصدان تابعان**، يُفهمان في ضوء المقاصد الأصلية. وأما المقاصد الأخلاقية والتشريعية والتربوية فهي **نتائج مترتبة**، تُفهم في ضوء المقاصد الأصلية.

المحور الثالث: تقويم المقاصد وفق معايير الشمول

والاتساق السياقي والقدرة التفسيرية

بعد فحص المقاصد، يلزم تقويمها وفق ثلاثة معايير: الشمول، والاتساق السياقي، والقدرة التفسيرية. وهذا التقويم يهدف إلى تحديد أي المقاصد يصلح لأن يكون أساسًا لصياغة المقصد الجامع.

معييار الشمول:

المقصد	درجة الشمول	التقييم
الألوهية	عالية (يشمل الافتتاح، الخلق، النعم، نقد الشرك، الأمثال، الخاتمة)	يصلح أساسًا للمقصد الجامع
الوحي	متوسطة (يشمل مقاطع الوحي والنبوة والرد على المكذابين والخاتمة)	يصلح أساسًا، لكنه أقل شمولًا من الألوهية
البعث	متوسطة (يشمل مقاطع البعث والجزاء والمسؤولية)	يصلح أساسًا، لكنه أقل شمولًا من الألوهية
النعم/الشكر	محدودة (تقتصر على مقاطع النعم)	لا يصلح أساسًا بمفرده
الجحود	محدودة (تقتصر على مقاطع النقد)	لا يصلح أساسًا بمفرده

المق صد	درجة الشمول	التقييم
الأخلا ق/ التشري ع	محدودة (تقتصر على مقاطع التوجيه)	لا يصلح أساسًا بمفرده

معييار الاتساق السياقي:

المقصد	درجة الاتساق	التقييم
الألوهية	عالية (يتسق مع سياقات متعددة: خلق، نعم، نقد، أمثال، خاتمة)	يصلح أساسًا للمقصد الجامع
الوحي	متوسطة (يتسق مع سياقات الوحي والنبوة، لكنه أقل اتساقًا مع سياقات النعم)	يصلح أساسًا، لكنه يحتاج إلى ربط بالألوهية
البعث	متوسطة (يتسق مع سياقات البعث والمسؤولية، لكنه أقل اتساقًا مع سياقات النعم)	يصلح أساسًا، لكنه يحتاج إلى ربط بالألوهية
النعم/ الشكر	محدودة (يتسق مع سياقات النعم، لكنه لا يتسق مع سياقات أخرى إلا من خلال الألوهية)	لا يصلح أساسًا بمفرده
الجحود	محدودة (يتسق مع سياقات النقد، لكنه لا يتسق مع سياقات أخرى إلا من خلال الألوهية)	لا يصلح أساسًا بمفرده

المقصد	درجة الاتساق	التقييم
الأخلاق /التشري ع	محدودة (يتسق مع سياقات التوجيه، لكنه لا يتسق مع سياقات أخرى إلا من خلال الألوهية)	لا يصلح أساسًا بمفرده

معيار القدرة التفسيرية:

المقصد	درجة القدرة التفسيرية	التقييم
الألوهية	عالية (يفسر كثيرًا من المقاطع: الخلق، النعم، نقد الشرك، الأمثال، الخاتمة)	يصلح أساسًا للمقصد الجامع
الوحي	متوسطة (يفسر مقاطع الوحي والنبوة، لكنه لا يفسر مقاطع النعم والتشريع)	يصلح أساسًا، لكنه يحتاج إلى تكامل مع الألوهية
البعث	متوسطة (يفسر مقاطع البعث والمسؤولية، لكنه لا يفسر مقاطع النعم والتشريع)	يصلح أساسًا، لكنه يحتاج إلى تكامل مع الألوهية
النعم/ الشكر	محدودة (يفسر مقاطع النعم، لكنه لا يفسر مقاطع أخرى)	لا يصلح أساسًا بمفرده

المقصد	درجة القدرة التفسيرية	التقييم
الجحود	محدودة (يفسر مقاطع النقد، لكنه لا يفسر مقاطع أخرى)	لا يصلح أساسًا بمفرده
الأخلاق / التشريع	محدودة (يفسر مقاطع التوجيه، لكنه لا يفسر مقاطع أخرى)	لا يصلح أساسًا بمفرده

نتيجة التقويم: يكشف التقويم أن مقصد الألوهية هو الأكثر شمولاً واتساقاً وقدرة تفسيرية. يليه مقصد الوحي ومقصد البعث، لكنهما أقل شمولاً. وأما المقاصد الأخرى (النعم/الشكر، الجحود، الأخلاق/التشريع) فهي محدودة، ولا تصلح أساساً للمقصد الجامع بمفردها.

غير أن هذا لا يعني أن مقصد الألوهية هو المقصد الجامع؛ فقد يكون المقصد الجامع صياغة تجمع بين الألوهية والوحي والبعث، أو صياغة تفسر العلاقة بينها. وسنتطرق في الصفحات التالية كيفية بناء الصيغ المحتملة للمقصد الجامع، والموازنة بينها.

الترجيح بين الصيغ المحتملة للمقصد الجامع المحور الأول: بناء الصيغ المحتملة للمقصد الجامع انطلاقاً من نتائج التحليل والاستقراء

بناءً على نتائج الفحص والتقويم فيما سبق، يمكن بناء أربع صيغ محتملة للمقصد الجامع لسورة النحل. وكل صيغة يتم من خلالها تفسير البناء الكلي للسورة من زاوية مختلفة، ويُختبر مدى قدرتها على تفسير خصوصية السورة.

الصيغة الأولى: "تقرير الألوهية وتنزيه الله عن الشرك."

- **مضمونها:** السورة تسعى إلى تقرير ألوهية الله وحده، وتنزيهه عن الشرك، من خلال عرض أدلة الخلق والنعم والوحي والبعث، ونقد شبهات المشركين.
- **أدلتها:** الافتتاح [النحل: ١]، ومقاطع الخلق [النحل: ٣-٦]، ومقاطع النعم [النحل: ١٠-٢١]، ومقاطع نقد الشرك [النحل: ٢٢-٥٦]، والأمثال [النحل: ٧٥-٧٦]، والخاتمة [النحل: ١٢٠-١٢٣].

- **نقاط قوتها:** شمولها لمقاطع متعددة، واتساقها مع سياقات متعددة، وقدرتها على تفسير كثير من المقاطع.
 - **نقاط ضعفها:** لا تفسر بمفردها مقاطع التشريع والأخلاق، ولا مقاطع البعث والجزاء إلا من خلال ربطها بالألوهية.
- الصيغة الثانية: "تقرير الألوهية والوحي والبعث: الأصول الثلاثة."**

- **مضمونها:** السورة تسعى إلى تقرير ثلاثة أصول عقديّة: الألوهية، والوحي، والبعث، وربطها بالسلوك الإنساني.
 - **أدلتها:** مقاطع الألوهية [النحل: ١-٢١، ٢٢-٥٦، ٧٥-٧٦]، ومقاطع الوحي [النحل: ٢، ٤٣-٤٤، ٨٩، ١٠٢-١٠٥]، ومقاطع البعث [النحل: ٣٨-٣٩، ٧٧، ٨٤-٨٩، ٩٧، ١١٠].
 - **نقاط قوتها:** تجمع بين الأصول الثلاثة، وتفسر مقاطع متعددة.
 - **نقاط ضعفها:** قد تكون صياغة عامة تصلح لسور كثيرة، ولا تفسر خصوصية سورة النحل (كثافة النعم، وذكر النحل، والخطاب الإبراهيمي).
- الصيغة الثالثة: "ربط الألوهية بالنعمة والشكر والمسؤولية".**
- **مضمونها:** السورة تسعى إلى تقرير الألوهية من خلال النعم، وربط هذه الألوهية بالشكر والمسؤولية، ومواجهة الجحود.
 - **أدلتها:** مقاطع النعم [النحل: ٥-١٨، ٦٦-٦٩، ٧٠-٨٣]، وآيات الشكر [النحل: ١٤، ٧٨]، وآية الجحود [النحل: ٨٣]، ومثل القرية [النحل: ١١٢].
 - **نقاط قوتها:** تفسر خصوصية سورة النحل (كثافة النعم، وذكر النحل، والجحود)، وتربط بين الألوهية والشكر.

- نقاط ضعفها: قد لا تفسر مقاطع الوحي والبعث والتشريع إلا من خلال ربطها بالألوهية.
 - الصيغة الرابعة: "تقرير الألوهية من خلال النعم، وربطها بالشكر والمسؤولية، ومواجهة الجحود، وهداية الإنسان إلى الصراط المستقيم."
 - مضمونها: السورة تسعى إلى تقرير الألوهية من خلال النعم، وربطها بالشكر والمسؤولية، ومواجهة الجحود، وهداية الإنسان إلى الصراط المستقيم (كما في الخطاب الإبراهيمي).
 - أدلتها: جميع ما سبق، مع إضافة الخطاب الإبراهيمي [النحل: ١٢٠-١٢٣]، وآية الهداية [النحل: ٩، ١٢١].
 - نقاط قوتها: تجمع بين الألوهية والنعم والشكر والجحود والهداية، وتفسر خصوصية سورة النحل.
 - نقاط ضعفها: قد تكون صياغة مركبة تحتاج إلى تماسك داخلي، وقد تُتهم بالعموم.
- وهذه الصيغ الأربع ليست حصرية، بل هي صيغ محتملة يمكن الموازنة بينها. والمطلوب في المحور الثاني الموازنة بينها وفق الأدلة النصية والسياقية والموضوعية والترابطية.

المحور الثاني: الموازنة بين الصيغ المحتملة وفق

الأدلة النصية والسياقية والموضوعية والترابطية

تتم الموازنة بين الصيغ الأربع وفق أربعة معايير: الأدلة النصية، والاتساق السياقي، والشمول الموضوعي، والقدرة الترابطية.

أولاً: معيار الأدلة النصية.

التقييم	الصيغة	قوة الأدلة النصية
مقبولة	الأولى (الألوهية)	قوية (نصوص متعددة صريحة)
مقبولة	الثانية (الألوهية والوحي والبعث)	قوية (نصوص متعددة صريحة)
مقبولة	الثالثة (الألوهية والنعمة والشكر)	متوسطة إلى قوية (نصوص متعددة لكنها أقل صراحة)
مقبولة بتحفظ	الرابعة (الألوهية والنعمة والشكر والهداية)	متوسطة (نصوص متعددة لكنها مركبة)

ثانياً: معيار الاتساق السياقي.

التقييم	الصيغة	درجة الاتساق
مقبولة	الأولى (الألوهية)	عالية (تتسق مع سياقات متعددة)
مقبولة	الثانية (الألوهية والوحي والبعث)	عالية (تتسق مع سياقات متعددة)
مقبولة بتحفظ	الثالثة (الألوهية والنعمة والشكر)	متوسطة (تتسق مع سياقات النعم، لكنها أقل اتساقاً مع سياقات أخرى)

التقييم	الصيغة	درجة الاتساق
مقبولة بتحفظ	الرابعة (الألوهية والنعمة والشكر والهداية)	متوسطة (تتسق مع سياقات متعددة لكنها مركبة)

ثالثاً: معيار الشمول الموضوعي.

التقييم	درجة الشمول	الصيغة
مقبولة	عالية (تشمل مقاطع متعددة)	الأولى (الألوهية)
مقبولة	عالية (تشمل مقاطع متعددة)	الثانية (الألوهية والوحي والبعث)
مقبولة بتحفظ	متوسطة (تشمل مقاطع النعم، لكنها أقل شمولاً لمقاطع أخرى)	الثالثة (الألوهية والنعمة والشكر)
مقبولة	عالية (تشمل مقاطع متعددة)	الرابعة (الألوهية والنعمة والشكر والهداية)

رابعاً: معيار القدرة الترابطية.

التقييم	درجة الترابط	الصيغة
مقبولة	عالية (تربط بين مقاطع متعددة)	الأولى (الألوهية)
مقبولة	عالية (تربط بين الأصول الثلاثة)	الثانية (الألوهية والوحي والبعث)

مقبولة بتحفظ	متوسطة (تربط بين الألوهية والنعمة، لكنها أقل ترابطًا مع مقاطع أخرى)	الثالثة (الألوهية والنعمة والشكر)
مقبولة	عالية (تربط بين الألوهية والنعمة والشكر والهداية)	الرابعة (الألوهية والنعمة والشكر والهداية)

نتيجة الموازنة: الصيغ الأربع مقبولة، لكن الصيغة الثانية (الألوهية والوحي والبعث) والصيغة الرابعة (الألوهية والنعمة والشكر والهداية) تبدوان أقوى من غيرهما. الصيغة الثانية أقوى في الأدلة النصية والسياق، والصيغة الرابعة أقوى في الشمول الموضوعي والقدرة الترابطية. والمطلوب في المحور الثالث استبعاد الصيغ التي لا تفسر خصوصية السورة، كما سنتطرق مستقبلاً إلى كيفية ترجيح الصيغة النهائية.

المحور الثالث: استبعاد الصيغ التي لا تفسر خصوصية السورة أو لا تسندها الأدلة الكافية

بعد الموازنة بين الصيغ، يلزم استبعاد الصيغ التي لا تفسر خصوصية سورة النحل، أو لا تسندها الأدلة الكافية. وهذا الاستبعاد ليس حكمًا نهائيًا، بل هو خطوة في طريق الترجيح.

استبعاد الصيغة الأولى (الألوهية فقط):

- سبب الاستبعاد: على الرغم من قوتها، فإنها صيغة عامة تصلح لسور كثيرة (كالإخلاص، والكافرون، والأنعام)؛ فهي لا تفسر خصوصية سورة النحل (كثافة النعم، وذكر النحل، والخطاب الإبراهيمي، والجحود). ومن ثم، فهي صيغة صحيحة لكنها غير كافية للتعبير عن خصوصية السورة.

استبعاد الصيغة الثالثة (الألوهية والنعمة والشكر):

- سبب الاستبعاد: على الرغم من أنها تفسر خصوصية سورة النحل (كثافة النعم)، فإنها لا تفسر مقاطع الوحي والبعث والتشريع إلا من خلال ربطها بالألوهية؛ فهي صيغة جزئية لا تشمل البناء الكلي.

الاحتفاظ بالصيغة الثانية (الألوهية والوحي والبعث):

- سبب الاحتفاظ: تجمع بين الأصول الثلاثة، وتفسر مقاطع متعددة في السورة، وتتسق مع سياقات متعددة. لكنها قد تكون صيغة عامة تصلح لسور كثيرة، وتحتاج إلى إضافة عنصر يخص سورة النحل.

الاحتفاظ بالصيغة الرابعة (الألوهية والنعمة والشكر والهداية):

- سبب الاحتفاظ: تجمع بين الألوهية والنعمة والشكر والهداية، وتفسر خصوصية سورة النحل، وتربط بين مقاطع متعددة. لكنها تحتاج إلى تماسك داخلي، وإلى إثبات أن هذه العناصر تنتظم في مقصد واحد.
- نتيجة الاستبعاد: تُستبعد الصيغتان الأولى والثالثة (لعدم تفسيرهما خصوصية السورة، أو لقصد هما الجزئي)، ويُحتفظ بالصيغتين الثانية والرابعة للموازنة النهائية في الموضوع التالي.
- غير أن هذا لا يعني أن الصيغتين الأولى والثالثة خاطئتان، بل تعني أنهما أقل قدرة على تفسير البناء الكلي للسورة، والذي يتضح لنا من خلال التقسيم الاجتهادي التالي:
- ❖ تقسيم اجتهادي لمقاطع سورة النحل الموضوعية

م	الموضوع الغالب	المقطع	الآيات
١	تقرير الألوهية والوحي والبعث	الافتتاح العقدي	٩-١
٢	الاستدلال بالنعمة ونقد الشرك	النعمة الكونية	٢١-١٠
٣	تفنيد الشبهات وسنة الله في المكذبين	مواجهة الشرك	٥٦-٢٢
٤	التأمل في دقائق التكوين	نعم الأنعام والنحل	٦٩-٥٧
٥	ربط النعمة بالمعرفة والإنكار	النعمة الاجتماعية	٨٣-٧٠
٦	ربط النعمة بالمسؤولية الأخروية	البعث والجزاء	٨٩-٨٤

٧	تحويل العقيدة إلى عمل	التوجيهات الأخلاقية	٩٠- ١٠٠
٨	تأكيد الوحي والإعراض	شبهات حول القرآن	١٠١- ١١١
٩	الجهود الجماعية والافتداء	القرية وإبراهيم	١١٢- ١١٩
١٠	التوحيد والدعوة والصبر	الخاتمة	١٢٠- ١٢٨



المقصد الجامع لسورة النحل وعلاقته بالمقاصد الفرعية

المحور الأول: معايير صياغة المقصد الجامع وتمييزه عن الموضوع الجامع والصيغ العامة

قبل صياغة المقصد الجامع، يلزم تحديد المعايير التي تحكم هذه الصياغة، وتمييز المقصد الجامع عن الموضوع الجامع والصيغ العامة. وهذا التمييز ضروري لضبط الصياغة النهائية. **أولاً: معايير صياغة المقصد الجامع.**

بعد تحليل الصيغ المحتملة، يمكن تحديد خمسة معايير لصياغة المقصد الجامع:

المعيار الأول: الاستناد النصي والسياقي. يجب أن يستند المقصد الجامع إلى نصوص متعددة، وأن يكون متسقاً مع سياقات السورة المختلفة؛ فلا يكفي أن يستند إلى آية واحدة أو مقطع واحد.

المعيار الثاني: تفسير خصوصية السورة. يجب أن يفسر المقصد الجامع ما تتميز به سورة النحل عن غيرها، ككثافة النعم، وذكر النحل، والخطاب الإبراهيمي، والجحود؛ فإذا كانت الصياغة تصلح لسور كثيرة، فهي صيغة عامة غير مميزة.

المعيار الثالث: الشمول المفسر للعلاقة بين المقاصد الفرعية. يجب أن يفسر المقصد الجامع العلاقة بين المقاصد الفرعية، لا أن يجمعها جمعاً خارجياً؛ فالمقصد الجامع ليس قائمة بالمقاصد، بل هو المعنى الذي ينتظمها.

المعيار الرابع: عدم الانطباق الواسع. يجب ألا تكون الصياغة عامة بحيث تنطبق على عدد كبير من السور؛ فالمقصد الجامع يجب أن يكون خاصًا بسورة النحل، أو على الأقل أن يكون تفسيره لخصوصية السورة واضحًا.

المعيار الخامس: القدرة على تفسير العلاقات الموضوعية والاستدلالية بين المقاطع. يجب أن يفسر المقصد الجامع لماذا جاءت المقاطع بهذا الترتيب، ولماذا تنتقل السورة من موضوع إلى آخر، وكيف تنتظم في بناء كلي.

ثانيًا: التمييز بين المقصد الجامع والموضوع الجامع. الموضوع الجامع هو وصف لمحتوى السورة، بينما المقصد الجامع هو الغاية التي تفسر انتظام هذا المحتوى ووظيفته؛ فمثلاً:

- **الموضوع الجامع:** "سورة النحل تتناول الألوهية والوحي والبعث والنعم والتشريع."
 - **المقصد الجامع:** "سورة النحل تسعى إلى تقرير الألوهية من خلال النعم، وربطها بالشكر والمسؤولية، ومواجهة الجحود، وهداية الإنسان إلى الصراط المستقيم."
- فالموضوع الجامع يعدد القضايا، والمقصد الجامع يفسر الغاية من ورائها. والموضوع الجامع قد يصلح لسور كثيرة، أما المقصد الجامع فيجب أن يكون خاصًا بالسورة.

ثالثًا: التمييز بين المقصد الجامع والصيغ العامة.
الصيغ العامة هي التي تصلح لعدد كبير من السور، مثل: "تقرير التوحيد"، "الدعوة إلى الإيمان"، "تزكية النفوس". وهذه الصيغ صحيحة في ذاتها، لكنها لا تصلح مقصدًا جامعًا لسورة بعينها، لأنها لا تفسر خصوصيتها. والمقصد الجامع يجب أن يكون أكثر تحديدًا، وأن يفسر ما تتميز به السورة.



المحور الثاني: الصياغة النهائية للمقصد الجامع وأدلتها ووجه ترجيحها

بناءً على المعايير الخمسة، وبعد الموازنة بين الصيغ المحتملة، يمكننا صياغة المقصد الجامع لسورة النحل على النحو الآتي:
"تقرير الألوهية من خلال النعم، وربطها بالشكر والمسؤولية، ومواجهة الجحود، وهداية الإنسان إلى الصراط المستقيم". والتي تجمع بين أربعة عناصر:

١. تقرير الألوهية: وهو الأصل الذي تسعى السورة إليه.
٢. من خلال النعم: وهو المجال الذي تعرض به السورة أدلة الألوهية (وهو ما يميز سورة النحل).
٣. ربطها بالشكر والمسؤولية: وهو الاستجابة المطلوبة من الإنسان.
٤. مواجهة الجحود: وهو النقيض الذي تحاربه السورة.
٥. هداية الإنسان إلى الصراط المستقيم: وهو الغاية النهائية التي تسعى إليها السورة.

أدلة الترجيح:

الدليل الأول: من الافتتاح. يفتتح الله السورة بتقرير سلطانه وتنزيهه عن الشرك [النحل: ١]، ثم يذكر إنزال الوحي [النحل: ٢]، ثم يذكر الخلق [النحل: ٣]. وهذا يخدم العنصر الأول (تقرير الألوهية).

الدليل الثاني: من مقاطع النعم. تعرض السورة مقاطع واسعة من النعم [النحل: ٥-١٨، ٦٦-٦٩، ٧٠-٨٣]، وتربطها بالتفكير

والشكر [النحل: ١٤، ٧٨]. وهذا يخدم العنصر الثاني (من خلال النعم) والعنصر الثالث (الشكر).

الدليل الثالث: من آية الجحود. تقول السورة: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣]، وتضرب مثل القرية التي كفرت بأنعم الله [النحل: ١١٢]. وهذا يخدم العنصر الرابع (مواجهة الجحود).

الدليل الرابع: من الخطاب الإبراهيمي. يقدم إبراهيم نموذجًا للتوحيد والشكر [النحل: ١٢٠-١٢١]، ويأمر باتباع ملته [النحل: ١٢٣]. وهذا يخدم العنصر الخامس (هداية الإنسان إلى الصراط المستقيم).

الدليل الخامس: من الخاتمة. تختتم السورة بالدعوة بالحكمة والصبر، ووعد الله للمتقين المحسنين [النحل: ١٢٥-١٢٨]. وهذا يخدم العنصر الخامس (الهداية).

وجه ترجيح الصياغة: تُرجح هذه الصياغة للأسباب الآتية:
أولاً: استنادها إلى نصوص متعددة؛ فهي لا تستند إلى آية واحدة، بل إلى نصوص متعددة من الافتتاح ومقاطع النعم وآية الجحود والخطاب الإبراهيمي والخاتمة.

ثانياً: تفسيرها لخصوصية سورة النحل؛ فهي تفسر كثافة النعم في السورة، وذكر النحل، والخطاب الإبراهيمي، والجحود. وهذه كلها سمات تتميز بها سورة النحل.

ثالثاً: شمولها للعلاقة بين المقاصد الفرعية؛ فهي تربط بين الألوهية (المقصد الأول)، والنعم/الشكر (المقصد الرابع)،

والجحود (المقصد الخامس)، والهداية (المقصد السادس).
وتفسر العلاقة بينها: الألوهية تُقرر من خلال النعم، والنعم
تستدعي الشكر، والشكر يقابله الجحود، والهداية توجه
الإنسان إلى الصراط المستقيم.

رابعاً: عدم انطباقها الواسع؛ فهي ليست صيغة عامة تصلح
لسور كثيرة، بل هي صياغة خاصة بسورة النحل، لأنها تركز على
النعم (التي تشكل مساحة واسعة من السورة) وعلى الجحود
(الذي ورد في مثل القرية) وعلى الهداية (التي وردت في الخطاب
الإبراهيمي).

خامساً: قدرتها على تفسير العلاقات الموضوعية
والاستدلالية؛ فهي تفسر لماذا تنتقل السورة من الألوهية إلى
النعم، ومن النعم إلى الشكر، ومن الشكر إلى الجحود، ومن
الجحود إلى الهداية. وتفسر لماذا تأتي مقاطع التشريع والأخلاق
في السياق: لأنها نتائج مترتبة على الألوهية والشكر والمسؤولية.
تحفظات على الصياغة:

قد تُنتقد هذه الصياغة بأنها مركبة (تجمع بين أربعة عناصر)،
وأن المقصد الجامع يجب أن يكون واحداً. والرد على ذلك:
✓ **أولاً:** المقصد الجامع ليس بالضرورة كلمة واحدة، بل هو
صياغة تفسر البناء الكلي. وقد تكون مركبة إذا كانت العناصر
متراصة.

✓ **ثانياً:** العناصر الأربعة ليست منفصلة، بل هي مترابطة:
الألوهية تُقرر من خلال النعم، والنعم تستدعي الشكر،

والشكر يقابله الجحود، والهداية توجه إلى الصراط
المستقيم؛ فهي سلسلة متصلة، لا عناصر متجاورة.
✓ **ثالثاً:** الصياغة المركبة قد تكون أدق من الصياغة المفردة،
لأنها تعكس تعقيد البناء القرآني.



المحور الثالث: علاقة المقصد الجامع بالمقاصد

الفرعية ووظائفها في بناء السورة

بعد صياغة المقصد الجامع، يلزم بيان علاقته بالمقاصد الفرعية، ووظائف هذه المقاصد في بناء السورة. وهذا البيان يهدف إلى إثبات أن المقصد الجامع ليس صياغة نظرية، بل هو معنى ينتظم به البناء كله.

المقاصد الفرعية وعلاقتها بالمقصد الجامع:

أ. تقرير الألوهية: هو الأصل الذي يقوم عليه المقصد الجامع؛ فالمقصد الجامع يبدأ بـ "تقرير الألوهية"، ثم يبين كيف تُقرر (من خلال النعم)، وما تستدعيه (الشكر والمسؤولية)، وما تقابله (الجحود)، وما تفضي إليه (الهداية)؛ فالألوهية هي المحور الذي تدور حوله بقية العناصر.

ب. تذكير الإنسان بالنعم واستدعاء الشكر: هو المجال الذي تُعرض به الألوهية، والاستجابة التي تستدعيها؛ فالنعم ليست مجرد منافع، بل هي أدلة على الألوهية، والشكر ليس مجرد رد فعل، بل هو استجابة لمقتضى الألوهية.

ج. مواجهة الجحود: هو النقيض الذي تحاربه السورة؛ فالجحود ليس مجرد خطأ، بل هو إنكار لحقيقة الألوهية، ونقض للشكر. ومواجهته تخدم المقصد الجامع من خلال إبراز التناقض بين المعرفة والاستجابة، وبين النعمة والإنكار.

د. هداية الإنسان إلى الصراط المستقيم: هو الغاية التي تفضي إليها السورة؛ فبعد تقرير الألوهية، وعرض النعم، ودعوة

الشكر، ومواجهة الجحود، تأتي الهداية بوصفها الغاية النهائية: الإنسان الذي يقر بالألوهية، ويشكر النعم، ويواجه الجحود، يهديه الله إلى الصراط المستقيم.

هـ. المقاصد الأخلاقية والتشريعية والتربوية: هي النتائج المترتبة على المقصد الجامع؛ فالعدل والإحسان والوفاء بالعهد [النحل: ٩٠-٩١] نتائج مترتبة على الإيمان بالألوهية والشكر والمسؤولية. والدعوة بالحكمة [النحل: ١٢٥] نتيجة مترتبة على الهداية. والصبر [النحل: ١٢٧] نتيجة مترتبة على الثبات على الصراط المستقيم.

وظائف المقاصد الفرعية في بناء السورة:

المقصد الفرعي	وظيفته في بناء السورة
تقرير الألوهية	تأسيس الإطار العقدي، وتوجيه النظر إلى الخالق
النعم والشكر	عرض أدلة الألوهية، واستدعاء الاستجابة
مواجهة الجحود	نقد النقيض، وإبراز التناقض
الهداية	تحديد الغاية، وتوجيه الإنسان إلى الصراط
الأخلاق والتشريع	ترجمة العقيدة إلى سلوك
الدعوة والصبر	تبليغ الهداية والثبات عليها

وهذا الجدول يكشف أن المقاصد الفرعية ليست متجاوزة، بل هي مترابطة: الألوهية تُقرر، والنعم تعرض، والشكر يُستدعى، والجحود يُواجه، والهداية تُحقّق، والأخلاق تُترجم، والدعوة

تُبَلِّغ. وكل مقصد يؤدي وظيفة في البناء الكلي، ويسهم في تحقيق المقصد الجامع.

العلاقة بين المقصد الجامع والمقاصد الفرعية:

العلاقة بين المقصد الجامع والمقاصد الفرعية هي علاقة كل بجزئياته، لا علاقة عام بخصوص؛ فالمقصد الجامع ليس مجرد جمع للمقاصد الفرعية، بل هو المعنى الذي ينتظمها ويفسر وظائفها. ويمكن تمثيل هذه العلاقة على النحو الآتي:

❖ **المقصد الجامع** هو الإطار العام: "تقرير الألوهية من خلال النعم، وربطها بالشكر والمسؤولية، ومواجهة الجحود، وهداية الإنسان إلى الصراط المستقيم."

❖ **المقاصد الفرعية** هي العناصر التي تحقق هذا الإطار:

١. الألوهية: تُقرر.
٢. النعم: تُعرض.
٣. الشكر: يُستدعى.
٤. الجحود: يُواجه.
٥. الهداية: تُحقَّق.
٦. الأخلاق والتشريع: تُترجم.
٧. الدعوة والصبر: تُبَلِّغ.

وبهذا تكون المقاصد الفرعية وظائف للمقصد الجامع، لا بدائل عنه. وكل مقصد فرعي يؤدي وظيفة محددة، لكنه لا يستقل عن المقصد الجامع، ولا يغني عنه.

الخاتمة:

بهذه الصياغة، يصبح المقصد الجامع لسورة النحل واضحًا :
"تقرير الألوهية من خلال النعم، وربطها بالشكر
والمسؤولية، ومواجهة الجحود، وهداية الإنسان إلى الصراط
المستقيم." وهذه الصياغة:

١. تستند إلى نصوص متعددة.
٢. تفسر خصوصية السورة.
٣. تشمل العلاقة بين المقاصد الفرعية.
٤. لا تنطبق انطباعًا واسعًا على سور أخرى.
٥. قادرة على تفسير العلاقات الموضوعية والاستدلالية بين المقاطع.

وبهذا يتحقق الغرض من استخلاص المقاصد، وترجيح
المقصد الجامع، وبيان علاقته بالمقاصد الفرعية.

الهوامش

- (1) الطبري، محمد بن جرير. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تفسير سورة النحل، المواضع المشار إليها.
- (2) القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري. الجامع لأحكام القرآن، تفسير سورة النحل.
- (3) السعدي، عبد الرحمن بن ناصر. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تفسير سورة النحل، المواضع المشار إليها.
- (4) قطب، سيد؛ في ظلال القرآن، تفسير سورة النحل، المواضع المشار إليها.
- (5) ابن عاشور، محمد الطاهر. التحرير والتنوير، تفسير سورة النحل، المواضع المشار إليها.

الخاتمة

النتائج المتعلقة بالمنهج الإجرائي لاستقراء المقاصد العامة للسورة

تكشف هذه الدراسة عن أن استقراء المقاصد العامة للسور القرآنية يقتضي منهجًا إجرائيًا متدرجًا لا يقفز إلى النتائج قبل استكمال مقدماتها. وقد قام هذا المنهج على أربعة مستويات اصطلاحية متميزة: المعنى المقاصدي المحتمل، والمقصد المرشح، والمقصد العام المثبت، والمقصد الجامع. وهذه المستويات ليست تقسيمًا اصطلاحيًا مستقرًا في التراث، بل هي أدوات إجرائية اعتمدتها الدراسة لضبط مراحل الاستدلال، ومنع الانتقال غير المبرر من ملاحظة دلالية جزئية إلى تقرير مقصد عام. (1)

وقد أثبتت الدراسة أن التمييز بين الموضوع والمقصد تمييز حاسم لا يجوز تجاوزه؛ فالموضوع وصف لمحتوى السورة، والمقصد غاية تفسر انتظام هذا المحتوى. وقد كشف التطبيق على سورة النحل أن كثيرًا من الموضوعات التي قد تُظن مقاصد (كالنعم، والأمثال، والتشريع) هي في التحليل الدقيق وسائل أو نتائج أو مقاصد تابعة، لا مقاصد مستقلة. وهذا التمييز هو ما منع الدراسة من الوقوع في خطأ تحويل الموضوع الغالب إلى مقصد جامع، أو صياغة مقصد عام لا يفسر خصوصية السورة (2).

كما أثبتت الدراسة أن السياق والترابط الموضوعي أداتان متكاملتان لا منفصلتان؛ فالسياق يضبط دلالة الآية في موضعها، والترابط يكشف عن وظيفتها في البناء الكلي. وقد كان الجمع بينهما ضروريًا لتجنب خطأين متقابلين: التجزئة (تفسير الآيات بمعزل عن سياقها الأوسع)، والتعميم المسبق (افتراض مقصد شامل ثم تأويل الآيات على مقتضاه). وقد التزمت الدراسة بضابط حاسم: أن السياق والترابط يُستخدمان للكشف عن المقصد لا لتأييد مقصد مفترض سلفًا. (3)

النتائج المتعلقة بالبناء الموضوعي لسورة النحل وتحديد مقاطعها

كشف التحليل التفسيري في الفصل الأول عن أن سورة النحل تنظم في عشرة مقاطع موضوعية متتابعة، تُستخلص من قرائن الانتقال الدلالي، وتغير المخاطب، وتغير الوظيفة، والفواصل الاستئنافية. وهذه المقاطع ليست تقسيمًا مفروضًا مسبقًا، بل مستخلصة من التحليل نفسه، ومعللة بقرائنها النصية والسياقية. (4)

وأظهر التحليل أن السورة لا تسير في خط تصاعدي واحد من العقيدة إلى العمل، بل تتوزع بين مستويات متداخلة: تقرير عقدي (المقاطع ١، ٣، ٦، ٨)، واستدلال بالنعم (٢، ٤، ٥، ٩)، وتوجيه عملي (٧، ١٠). وهذا التداخل ليس عشوائيًا، بل يخدم وظيفة مزدوجة: تقرير الألوهية من جهة، وربطها بالنعمة

والشكر والمسؤولية من جهة أخرى. وقد كشف الجدول التحليلي للمقاطع أن موضوع النعم يتكرر في أربعة مقاطع، لكن بوظائف متغيرة: الاستدلال الكوني، ثم التأمل في دقائق التكوين، ثم ربط النعمة بالمعرفة والإنكار، ثم عرضها في صورة جماعية (القرية). وهذا التغير في الوظيفة — لا مجرد التكرار — هو ما استدعى دراسة الترابط في الفصل الثاني.(5)

النتائج المتعلقة بالترابط الموضوعي والاستدلالي بين مقاطع السورة

أثبتت الدراسة أن العلاقة بين الافتتاح والموضوعات اللاحقة ليست علاقة مباشرة دائماً، بل هي علاقة توجيهية تتجلى في ثلاثة مستويات: توجيه النظر إلى سلطان الله ونفاذ أمره، وتوجيه النظر إلى التوحيد وتنزيه الله عن الشرك، وتوجيه النظر إلى الوحي ومصدر الهداية. غير أن هذه العلاقة لا تفسر وحدها جميع موضوعات السورة، ولا تحدد ترتيبها، ولا تثبت وحدتها الموضوعية؛ فالافتتاح مفتاح قراءة لا مفتاح تفسير شامل (6).

وكشف تحليل الترابط أن انتقال عرض النعم من بيان مظاهرها إلى الاستدلال بها على التوحيد يمر بأربع مراحل: عرض النعم بوصفها مظاهر للخلق والتدبير، ثم الانتقال إلى الاستفهام الاستدلالي، ثم تعميق الاستدلال من خلال نقد الشرك، ثم إعادة عرض النعم في سياقات لاحقة بوظائف متغيرة. وهذا

التدرج يكشف أن النعم لم تُعرض لذاتها، بل لخدمة تقرير التوحيد.(7)

كما أظهرت المقابلة بين الشكر والجحود ثلاث وظائف في انتظام المعاني: إبراز التناقض بين المعرفة والاستجابة، وربط الاستجابة بالمسؤولية، وإبراز البعد الاجتماعي للاستجابة (كما في مثل القرية). وهذه المقابلات لا تثبت وحدها أن الشكر أو الجحود هو المقصد الجامع، لكنها تكشف عن شبكة علاقات دلالية تنتظم بها معاني السورة.(8)

النتائج المتعلقة بالمقاصد المرشحة وتصنيفها

ودرجات ثبوتها

استقرأت الدراسة أحد عشر مقصدًا مرشحًا، موزعة بين مقاصد عقدية وإيمانية وأخلاقية وتشريعية وتربوية. وبعد فحصها في ضوء مجموع السورة، ميزت الدراسة بين ثلاثة مستويات:(9)

المقاصد المستقلة: وهي ثلاثة مقاصد تشمل مقاطع متعددة، وتتسق مع سياقات متعددة، وتفسر جوانب معتبرة من البناء: تقرير الألوهية وتنزيه الله عن الشرك، وتقرير الوحي ومصدر الهداية، وتقرير البعث والجزاء والمسؤولية.

المقاصد التابعة: وهي مقصدان يرتبطان بالمقاصد المستقلة ارتباطًا وثيقًا، ولا يُفهمان إلا في ضوئها: تذكير الإنسان بالنعم واستدعاء الشكر (تابع لمقصد الألوهية)، ومواجهة الجحود والإنكار (تابع لمقصد الألوهية والبعث).

النتائج المترتبة: وهي التوجيهات الأخلاقية والتشريعية والتربوية (العدل والإحسان والوفاء بالعهد، وضبط الحلال والحرام، والدعوة بالحكمة، والصبر والثبات، والاقتداء بإبراهيم). وهذه ليست مقاصد مستقلة، بل نتائج مترتبة على المقاصد الأصلية.

وهذا التصنيف لا يعني أن النتائج أقل أهمية من المقاصد، بل يعني أنها مترتبة عليها، ولا تُفهم إلا في ضوئها. وهو تمييز ضروري لمنع جعل النتائج أو الوسائل مقاصد جامع. (10)

المقصد الجامع الذي انتهت إليه الدراسة، وأدلة ترجيحه وعلاقته بالمقاصد الفرعية

بعد الموازنة بين أربع صيغ محتملة للمقصد الجامع، واستبعاد الصيغ التي لا تفسر خصوصية السورة أو لا تسندها الأدلة الكافية، رجحت الدراسة الصياغة الآتية:

"تقرير الألوهية من خلال النعم، وربطها بالشكر والمسؤولية، ومواجهة الجحود، وهداية الإنسان إلى الصراط المستقيم".

وتستند هذه الصياغة إلى خمسة أدلة رئيسة:

الدليل الأول: من الافتتاح، الذي يقرر سلطان الله وتنزيهه عن الشرك [النحل: ١]، ثم يذكر إنزال الوحي [النحل: ٢]، ثم يذكر الخلق [النحل: ٣].

الدليل الثاني: من مقاطع النعم الواسعة [النحل: ٥-١٨، ٦٦-٦٩، ٧٠-٨٣]، التي تربط بين عرض النعم والتفكر والشكر [النحل: ١٤، ٧٨].

الدليل الثالث: من آية الجحود [النحل: ٨٣]، ومثل القرية التي كفرت بأنعم الله [النحل: ١١٢].

الدليل الرابع: من الخطاب الإبراهيمي [النحل: ١٢٠-١٢٣]، الذي يقدم إبراهيم نموذجًا للتوحيد والشكر، ويأمر باتباع ملته. **الدليل الخامس:** من الخاتمة [النحل: ١٢٥-١٢٨]، التي تجمع بين الدعوة بالحكمة والصبر، ووعد الله للمتقين المحسنين.

وترجحت هذه الصياغة لخمسة أسباب: استنادها إلى نصوص متعددة، وتفسيرها لخصوصية سورة النحل (كثافة النعم، وذكر النحل، والخطاب الإبراهيمي، والجحود)، وشمولها للعلاقة بين المقاصد الفرعية، وعدم انطباقها الواسع على سور أخرى، وقدرتها على تفسير العلاقات الموضوعية والاستدلالية بين المقاطع. (11)

أما علاقة المقصد الجامع بالمقاصد الفرعية، فهي علاقة كل بجزئياته، لا علاقة عام بخصوص؛ فالمقصد الجامع ليس مجرد جمع للمقاصد الفرعية، بل هو المعنى الذي ينتظمها ويفسر وظائفها: الألوهية تُقرر، والنعم تُعرض، والشكر يُستدعى، والجحود يُواجه، والهداية تُحقق، والأخلاق تُترجم، والدعوة تُبلّغ. وكل مقصد فرعي يؤدي وظيفة محددة في البناء الكلي، لكنه لا يستقل عن المقصد الجامع، ولا يغني عنه. (12)

الإشارات الإيمانية والتربوية المستفادة من النتائج، في حدود ما تسمح به الأدلة

تُوحى نتائج هذه الدراسة بجملة من الإشارات الإيمانية والتربوية، تُعرض هنا بوصفها استنباطات علمية من دلالات النصوص ومقاصدها، لا نتائج تجريبية ميدانية، ولا ادعاءات مستقلة عن المادة القرآنية: (13)

الإشارة الأولى: أن تدبر النعم في سورة النحل لا يقتصر على الانتفاع بها، بل يمتد إلى استحضار المنعم وشكره. وهذا يوجه المؤمن إلى تحويل النعم من مجرد منافع مادية إلى مجال للتأمل والعبادة.

الإشارة الثانية: أن الجحود ليس مجرد خطأ سلوكي، بل هو إنكار لحقيقة الألوهية. وهذا يوجه المؤمن إلى مراجعة موقفه من النعم، وعدم الاكتفاء بالمعرفة النظرية دون استجابة عملية.

الإشارة الثالثة: أن الهداية إلى الصراط المستقيم ليست مجرد معرفة نظرية، بل هي غاية تتحقق بالافتداء بإبراهيم عليه السلام، وبالدعوة بالحكمة، والصبر على مقتضيات البلاغ.

الإشارة الرابعة: أن الأخلاق والتشريع في السورة ليسا إضافة على العقيدة، بل ثمرة طبيعية لها. وهذا يوجه المؤمن إلى ربط سلوكه بعقيدته، وعدم فصل الممارسة عن التصور.

وهذه الإشارات تُعرض في حدود ما تسمح به الأدلة، ولا تُقدّم بوصفها نتائج تجريبية، ولا يُدّعى أنها تُثبت أثرًا نفسيًا أو

اجتماعيًا محددًا؛ فما تستطيعه الدراسة التفسيرية المقاصدية هو بيان ما تدل عليه النصوص أو تستلزمه دلالاتها، لا قياس الأثر الميداني. (14)

الإجابات المباشرة عن أسئلة البحث

السؤال الأول: ما المنهج الإجرائي الذي تعتمد الدراسة في استقراء المقاصد العامة لسورة النحل وترجيحها وترجيح المقصد الجامع؟

الجواب: المنهج الإجرائي يقوم على أربعة مستويات متميزة (المعنى المحتمل، المقصد المرشح، المقصد العام المثبت، المقصد الجامع)، مع التمييز بين الموضوع والمقصد، واستخدام السياق والترابط الموضوعي أداتين متكاملتين، والالتزام بضوابط: الاستقراء لا الاكتفاء بالشاهد الجزئي، ومراعاة السياق الخاص والعام، وتمييز وظيفة الموضوع من موضوعه، والقدرة التفسيرية، ومراعاة خصوصية السورة، والتناسب بين قوة الدعوى وقوة دليلها. (15)

السؤال الثاني: ما موضوعات سورة النحل الرئيسة، وكيف تنتظم في مقاطع متتابعة، وما الدلالات والمؤشرات المقاصدية التي يكشف عنها تحليل كل مقطع؟

الجواب: تنتظم السورة في عشرة مقاطع موضوعية، تُستخلص من قرائن الانتقال الدلالي وتغير المخاطب وتغير الوظيفة والفواصل الاستثنائية. وكل مقطع يؤدي وظيفة أولية في البناء: تقرير عقدي، أو استدلال بالنعم، أو توجيه عملي. وقد رُصدت

في كل مقطع مؤشرات مقاصدية أولية، دون حسم المقاصد العامة.(16)

السؤال الثالث: ما العلاقات الموضوعية والاستدلالية التي تنتظم مقاطع السورة وموضوعاتها، وكيف تسهم العناصر المميزة في تشكيل وحدة بنائها الموضوعي؟

الجواب: العلاقات تتنوع بين علاقة مباشرة (كما في مقاطع التوحيد والوحي والبعث)، وعلاقة غير مباشرة (كما في المقاطع التشريعية)، وعلاقة وظيفية (كما في المقاطع التي تؤدي وظائف في البناء الكلي). والأمثال والخطاب الإبراهيمي يؤديان وظائف استدلالية ونموذجية، ويسهمان في ربط موضوعات السورة. لكن هذه العلاقات لا تثبت وحدها وحدة موضوعية مقصودة، بل توفر قرائن تُستلخص في الفصل الثالث.(17)

السؤال الرابع: ما المقاصد العامة المرشحة لسورة النحل، وكيف تُصنّف بحسب طبيعتها ووظيفتها ودرجة دلالة الأدلة عليها؟

الجواب: استقرأت الدراسة أحد عشر مقصدًا مرشحًا، موزعة بين مقاصد عقدية وإيمانية وأخلاقية وتشريعية وتربوية. وصنفتها بحسب الطبيعة والوظيفة ودرجة الدليل، وميزت بين المقاصد المستقلة (ثلاثة)، والمقاصد التابعة (اثنان)، والنتائج المترتبة (التوجيهات الأخلاقية والتشريعية والتربوية).(18)

السؤال الخامس: ما الصيغ المحتملة للمقصد الجامع لسورة النحل، وأيهما أرجح وفق الأدلة، وكيف يفسر المقصد الجامع

الراجع خصوصية السورة وعلاقة مقاصدها الفرعية بعضها ببعض؟

الجواب: بُنيت أربع صيغ محتملة، ووُوزن بينها وفق أربعة معايير (الأدلة النصية، والاتساق السياقي، والشمول الموضوعي، والقدرة الترابطية)، ثم استُبعدت الصيغ التي لا تفسر خصوصية السورة أو لا تسندها الأدلة الكافية. ورجحت الدراسة صياغة "تقرير الألوهية من خلال النعم، وربطها بالشكر والمسؤولية، ومواجهة الجحود، وهداية الإنسان إلى الصراط المستقيم"، لاستنادها إلى نصوص متعددة، وتفسيرها لخصوصية السورة، وشمولها للعلاقة بين المقاصد الفرعية، وعدم انطباقها الواسع، وقدرتها على تفسير العلاقات الموضوعية. (19)

حدود النتائج

الحد الأول: النتائج المقاصدية في هذه الدراسة اجتهادية، وليست قطعية؛ فاستنباط مقاصد السور عمل تفسيري يظل قابلاً للمراجعة والنقد، ويختلف باختلاف القرائن والأدلة. وقد التزمت الدراسة بعرض أدلتها ووجه ترجيحها، لكنها لا تدعي أن نتائجها نهائية لا تقبل النقاش. (20)

الحد الثاني: الدراسة تفسيرية مقاصدية، وليست دراسة تجريبية؛ فهي تستنبط من دلالات النصوص ما تدل عليه أو تستلزمه، لكنها لا تملك أدوات قياس الأثر النفسي أو الاجتماعي

الميداني. ومن ثم، فإن الإشارات الإيمانية والتربوية التي عرضتها هي استنباطات علمية، لا نتائج تجريبية. (21)

الحد الثالث: الدراسة اقتصرت على سورة النحل، ولم تتوسع في مقارنتها بسور أخرى إلا بمقدار ما يخدم التحليل. ومن ثم، فإن نتائجها خاصة بهذه السورة، ولا تُعمَّم على غيرها إلا بعد دراسة مماثلة. (22)

الحد الرابع: الدراسة اعتمدت على مصادر تفسيرية معتمدة، ولم تستقصِ جميع ما كُتب عن سورة النحل. ومن ثم، فإن نتائجها قابلة للإثراء بدراسات أخرى، وقد تكشف مراجعة أوسع عن وجوه لم تُعالجها هذه الدراسة. (23)

التوصيات والمقترحات البحثية

بناءً على ما انتهت إليه الدراسة، يمكن تقديم التوصيات والمقترحات الآتية:

التوصية الأولى: تطوير المنهج الإجرائي الذي اعتمدته الدراسة، وتطبيقه على سور أخرى، لمعرفة مدى صلاحيته وقابليته للتعميم؛ فالمنهج الذي يقوم على التمييز بين المعنى المحتمل والمقصد المرشح والمقصد المثبت والمقصد الجامع يحتاج إلى مزيد من التطبيق والمراجعة. (24)

التوصية الثانية: إجراء دراسات مقارنة بين مقاصد سورة النحل ومقاصد سور أخرى تشترك معها في بعض الموضوعات (كالنعم، أو التوحيد، أو البعث)، للكشف عن الخصوصيات

المقاصدية لكل سورة؛ فهذا من شأنه أن يعمق فهمنا لخصوصية كل سورة، ويمنع من التعميم غير المبرر. (25)

التوصية الثالثة: دراسة العناصر المميزة في سورة النحل دراسة مستقلة، كالأمثال، والخطاب الإبراهيمي، والنحل، ومثل القرية؛ فهذه العناصر أدت وظائف مهمة في البناء، لكنها تحتاج إلى تفصيل أوسع مما سمحت به هذه الدراسة. (26)

التوصية الرابعة: العناية بالبعد التربوي في الدراسات المقاصدية، من خلال استنباط الإشارات الإيمانية والتربوية من المقاصد، وعرضها بصيغة عملية، مع الالتزام بضوابط الاستنباط وعدم تحويلها إلى ادعاءات تجريبية. (27)

التوصية الخامسة: تطوير أدوات التحليل في الدراسات المقاصدية، كالجداول التحليلية للمقاطع، وشبكات العلاقات بين الموضوعات، ومعايير الترجيح بين الصيغ المحتملة؛ فهذه الأدوات تسهم في ضبط التحليل، ومنع الانزلاق إلى التعميم غير المبرر. (28)

المقترح الأول: دراسة "مقاصد سورة النحل في ضوء تفسير شهيد القرآن سيد قطب: دراسة تحليلية نقدية"، تجعل منهج شهيد القرآن موضوعًا رئيسًا للدراسة، لا مجرد مصدر تطبيقي؛ فهذا يمكن أن يكشف عن جوانب لم تُعالجها الدراسة الحالية. (29)

المقترح الثاني: دراسة "الوحدة الموضوعية في سورة النحل: بين النظرية والتطبيق"، تتناول مفهوم الوحدة الموضوعية،

وتطبقه على السورة، وتناقش الاعتراضات التي تُوجه إلى هذا المفهوم.(30)

المقترح الثالث: دراسة "النعم في القرآن الكريم: دراسة مقاصدية مقارنة بين سورة النحل وسور أخرى"، تتناول موضوع النعم في سور متعددة، وتقارن بين وظائفه المقاصدية في كل سورة.(31)

الهوامش

- (1) ينظر: استقراء المقاصد العقدية والإيمانية المرشحة ، حيث عرضت الدراسة المستويات الأربعة، وأكدت أنها اصطلاح إجرائي.
- (2) ينظر: التمييز بين المقاصد المستقلة والمقاصد التابعة والوسائل والأدلة والنتائج ، حيث ميزت الدراسة بين المقاصد المستقلة والتابعة والوسائل والنتائج.
- (3) ينظر: مفهوم السياق والترابط، وضوابط استخدامهما.
- (4) ينظر: حددت الدراسة المقاطع العشرة.
- (5) ينظر: الجدول التحليلي والتعقيب عليه.
- (6) ينظر: بينت الدراسة حدود دلالة الافتتاح.
- (7) ينظر: عرضت الدراسة مراحل انتقال عرض النعم إلى الاستدلال.
- (8) ينظر: عرضت الدراسة وظائف المقابلة بين الشكر والوجود.
- (9) ينظر: استقرأت الدراسة المقاصد المرشحة.
- (10) ينظر: ميزت الدراسة بين المستويات الأربعة.
- (11) ينظر: الدراسة الصياغة النهائية وأدلتها.
- (12) ينظر: حيث بينت الدراسة علاقة المقصد الجامع بالمقاصد الفرعية.
- (13) ينظر: الآثار الإيمانية والتربوية. وقد اقتصرَت الدراسة على إشارات موجزة في الخاتمة.
- (14) المرجع نفسه.
- (15) ينظر: المنهج الإجرائي.
- (16) ينظر: الفصل الأول، المبحث السادس.
- (17) ينظر: الفصل الثاني، المباحث من الأول إلى الخامس.

- 
- (18) ينظر: الفصل الثالث، المبحث الأول.
- (19) ينظر: الفصل الثالث، المبحث الثالث والمبحث الرابع.
- (20) ينظر: الفصل التمهيدي، المبحث الثاني، المحور الثالث، حيث أكدت الدراسة أن الإثبات بمعنى رجحان الدلالة لا القطع.
- (21) ينظر: الخاتمة، الإشارات الإيمانية والتربوية.
- (22) ينظر: المقدمة، منهج البحث وحدوده.
- (23) المرجع نفسه.
- (24) ينظر: الخاتمة، النتائج المتعلقة بالمنهج.
- (25) ينظر: الخاتمة، النتائج المتعلقة بالترابط.
- (26) ينظر: الفصل الثاني، المبحث الرابع.
- (27) ينظر: الخاتمة، الإشارات الإيمانية والتربوية.
- (28) ينظر: الجدول التحليلي.
- (29) ينظر: موقع تفسير سيد قطب.
- (30) ينظر: مفهوم الوحدة الموضوعية.
- (31) ينظر: مقاطع النعم.

والحمد لله رب العالمين.

فهرس الأعلام:

١ ابن عاشور، محمد الطاهر (١٨٧٩-١٩٧٣م)

عالم ومفسر وفقه تونسي، وُلد في مدينة المرسى قرب تونس سنة ١٨٧٩م، ونشأ في أسرة عريقة في العلم. درس بجامع الزيتونة، وتولى التدريس والقضاء والإفتاء، ثم مشيخة جامع الزيتونة. اشتهر بإسهاماته في تفسير القرآن الكريم ومقاصد الشريعة الإسلامية. من أبرز مؤلفاته: التحرير والتنوير ومقاصد الشريعة الإسلامية.

٢ ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم (١٢٦٣-١٣٢٨م)

عالم مسلم وفقه ومحدث، وُلد في حَرَّان سنة ١٢٦٣م، وانتقل مع أسرته إلى دمشق في صغره. برع في علوم الشريعة والحديث والفقه والتفسير، واشتهر بغزارة علمه وكثرة مؤلفاته. كان من أبرز علماء المذهب الحنبلي في عصره، وله مؤلفات عديدة في العقيدة والفقه والتفسير. من أشهر كتبه: مجموع الفتاوى ومنهاج السنة النبوية.

٣ السعدي، عبد الرحمن بن ناصر (١٨٨٩-١٩٥٦م)

عالم ومفسر وفقه سعودي، وُلد في مدينة عنيزة بمنطقة القصيم سنة ١٨٨٩م. حفظ القرآن الكريم في صغره، وطلب العلم على أيدي علماء عصره، ثم اشتغل بالتدريس والتأليف والإفتاء ومن أشهر تلاميذه الشيخ محمد بن صالح العثيمين. من أبرز مؤلفاته: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، المعروف بتفسير السعدي.

٤ الطبري، محمد بن جرير (٨٣٩-٩٢٣م)

عالم مسلم ومفسر ومؤرخ وفقيه، وُلد في مدينة آمل بطبرستان سنة ٨٣٩م. رحل في طلب العلم إلى عدد من الحواضر العلمية، وبرز في علوم القرآن والحديث والفقه والتاريخ. يُعد من كبار المفسرين والمؤرخين في التراث الإسلامي، واشتهر بجمع أقوال العلماء ومناقشتها في مؤلفاته. من أشهر كتبه :
جامع البيان عن تأويل آي القرآن وتاريخ الرسل والملوك.

٥ القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري (توفي ١٢٧٣م)

عالم ومفسر وفقيه أندلسي، اسمه محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري، ويُعرف بالإمام القرطبي. وُلد في قرطبة بالأندلس، ثم انتقل إلى المشرق واستقر في مصر، حيث واصل طلب العلم والتأليف. اشتهر بعنايته بتفسير القرآن الكريم واستنباط الأحكام الفقهية من آياته. ومن أشهر مؤلفاته كتاب الجامع لأحكام القرآن، المعروف بتفسير القرطبي .

٦ قطب، سيد (١٩٠٦-١٩٦٦م) "شهيد القرآن"

عالم ومفكر إسلامي وأديب مصري، وُلد في قرية موشا بمحافظة أسيوط سنة ١٩٠٦م. اشتهر بتفسيره في ظلال القرآن، إلى جانب مؤلفات أخرى ، منها معالم في الطريق؛ أُعدم ظلماً بقرار من طاغية مصر في القاهرة سنة ١٩٦٦م ؛ من أقوى عباراته رحمه الله:

"نحن نستشهد بسبب لا إله إلا الله وغيرنا يأكل بلا إله إلا الله.

فهرس المصطلحات المقاصدية

المصطلح	التعريف الإجرائي
المعنى المقاصدي المحتمل	دلالة أولية تظهر في موضع أو موضعين، ولم تخضع بعد للاستقراء
المقصد المرشح	معنى مقاصدي أظهره التحليل الأولي، ويحتاج إلى استخلاص
المقصد العام المثبت	مقصد أيده نتائج الاستقراء والتحليل
المقصد الجامع	صياغة كلية ترجحها الدراسة لتفسير البناء العام للسورة
السياق	القرائن اللفظية والدلالية التي تحيط بالآية وتعين على فهمها
الترايط الموضوعي	العلاقات الدلالية والاستدلالية التي تصل بين موضوعات السورة ومقاطعها
الموضوع الجامع	وصف لمحتوى السورة الإجمالي
المقصد التابع	غاية ترتبط بمقصد مستقل، ولا تُفهم إلا في ضوءه
النتيجة المترتبة	أثر يترتب على تحقيق المقصد، ولا يُعدّ مقصدًا مستقلًا

فهرس الموضوعات

- التعريف بسورة النحل.
- مصادر الدراسة: الاستفادة من تفسير شهيد القرآن سيد قطب ومصادر التفسير الأخرى.
- البناء الموضوعي لسورة النحل: التحليل التفسيري.
- افتتاح السورة ودلالاته في بناء موضوعاتها.
- أدلة التوحيد ومواجهة الشرك.
- النعم الإلهية ووظيفتها الاستدلالية.
- المبحث الرابع: الوحي والنبوة والبعث والجزاء.
- التوجيهات الأخلاقية والتشريعية والتربوية.
- المقاطع الموضوعية للسورة ووظائفها الأولية.
- الفصل الثاني: الترابط الموضوعي والاستدلالي بين مقاطع السورة.
- العلاقة بين افتتاح السورة وموضوعاتها الرئيسية.
- الترابط بين عرض النعم وتقرير التوحيد والشكر ومواجهة الشرك والجهود.
- العلاقة بين القضايا العقدية والتوجيهات الأخلاقية والتشريعية.
- وظائف العناصر المميزة في بناء العلاقات الموضوعية.
- العلاقة بين افتتاح السورة وخاتمها ودلالاتها على وحدة البناء الموضوعي.
- استخلاص مقاصد سورة النحل والمقصد الجامع لها والترجيح بينها.
- استخلاص المقاصد المرشحة لسورة النحل وتصنيفها.
- استخلاص المقاصد المرشحة وتقويمها.
- الترجيح بين الصيغ المحتملة للمقصد الجامع.
- المقصد الجامع لسورة النحل وعلاقته بالمقاصد الفرعية.

